محمد سليم العوا

بين الآباء والأبناء

تجاربُ واقعيةٌ

مُحمَّـد سَليـم العـوَّا

بينَ الآبَـاءِ والأبنَـاءِ

تجاربُ واقعيةٌ

طبعة مزيدة ومنقحة

دار نهضة مصر للنشر

العنوان:

بين الآباء والأبناء.. تجارب واقعية

تأليف:

د. محمد سليم العـوّا

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 977-14-2892-6

رقم الإيداع: 2004/15944

الطبعة السابعة: يونيو 2011

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من الوحي الرباني:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾.

[النساء: 174 - 175]

ومن جوامع الكلم:

«من أُعطِيَ حظَّهُ من الرفق فقد أعطيَ حظَّهُ من الخير، ومن حرم حظَّهُ من الرفق فقد حرم حظَّهُ من الخير».

[حديث صحيح؛ رواه الترمذي وأحمد عن أبي الدرداء]

الفهـرس

الإهداء 9

تقديم الطبعة الخامسة 11

تقديم الطبعة الرابعة 13

تقديم الطبعة الثالثة 17

مقدمة 21

1 ـ هدية ابنتي 35

2 ـ نصيحة صديق 43

3 ـ خسارة لا تعوَّض 48

4 ـ صناعةُ الصداقة 53

5 ـ ليس هناك مستحيل 57

6 ـ لا تدليل ولا إهمال 61

7 ـ نحصد ما زرعنا 64

8 ـ من أين يأتي العقوق؟! 68

9 ـ التدريب العملي 72

10 ـ اقلب «القِدْرَة» 76

11 ـ شيءٌ آخر 80

12 ـ ولا يزالون مختلفين 86

13 ـ حصائد الألسنة 93
14 ـ الفخر الكاذب 98
15 ـ صناعة الشخصية 104
16 ـ كعبول وكعبولة 112
17 ـ الأسئلة المحرجة 118
18 ـ ...وجاء الأحفاد 125
19 ـ فرحة العيد 133
20 ـ قيم تربوية 140

الإهـــداء

إلى جيل الأحفاد...

ليعرفوا كيف أعددنا لهم جيلَ الأمهاتِ والآباء !!

تقديم الطبعة الخامسة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد،

فقد كان من فضل الله عليَّ أن كَتَبَ لهذا الكتاب الصغير من القبول ما جعله يصدر خمسَ مرات في أقل من خمسِ سنوات.

وهذه الطبعة الخامسة تُقَدِّم إلى القارئ فصلاً جديدًا؛ هو الفصل التاسع عشر (فرحة العيد)، كتبته لأنقل تجربة شخصية، شأن جمهرة مادة هذا الكتاب، لكن أهميتها تبدو في أنها تثير الأمل في تحقيق ما يصبو المربي إليه من نتائج، وتحفز بذلك على العمل المستمر في الطريق الصحيح مهما خيف في أثنائه من انحراف الأبناء عنه أو زهدهم فيه(!)

وقد صححت في هذه الطبعة ما كان في سابقتها من سبق قلم أو خطأ طباعة، وأضفت في بعض حواشيها ما اقتضته إعادة النظر في نصها، أو ما كانت إضافته ضرورية بسبب وقوع أحداث تجب الإشارة إليها.

والحمد لله على توفيقه،

والشكر له على نعمه،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

محمد سليم العوَّا

3 من صفر الخير 1430هـ

2009/1/29م

تقديم الطبعة الرابعة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على محمد الذي لا نبي بعده، وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه، وبعد؛

فهذه هي الطبعة الرابعة من هذه الفصول التي تناولت فيها العلاقة بين الآباء والأبناء. أقدمها إلى القراء بعد أن مضت شهور على نفاد الطبعة الثالثة، وبعد أن أمللت أخي الأستاذ أسامة محمود بطلبها مني منذ نفدت الطبعة السابقة (!).

ولقد ووجهت، منذ صدور الطبعة الأولى لهذه الفصول، بمقترحات مفيدة، وطلبات من الأبناء والأصدقاء جادة لإضافة هنا أو تصويب هناك. وفعلت في الطبعة الثالثة ما استطعت من ذلك. وأضفت في هذه الطبعة الرابعة فصلاً جديدًا عن الأجداد والأحفاد، وفصلاً عن المسائل الحرجة في التربية، وهما فصلان كنت قد تمنيت كتابتهما ـ ضمن فصول أخرى ـ في مقدمة الطبعة الثالثة، ولا تزال أمانيَّ كما هي، ولكن القدماء علَّمونا أن الذي لا يدرك كله لا يترك جُلُّه (!) وقد حفظنا في الصغر المبكر قول الشاعر:

أعلل النفس بالآمال أرقبها

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!!

ولأن كثيرين ممن قرأوا هذه الفصول رأوا أنه من المناسب أن تكون لها مقدمة مفصلة في المبادئ التي نشأت عن تطبيقها تلك التجارب الواقعية فإنني أحيل الراغبين في ذلك إلى كتاب أستاذي

الجليل حسن العشماوي ـ رحمه الله ـ «هكذا نربي أولادنا»(*).
وهو مجموعة من الرسائل التي كتبها إلى زوجته ـ متعها الله بالصحة والعافية ـ في أثناء اختفائه في صعيد مصر ما بين سنتي 1954 و1957 الميلاديتين لئلا يقع في قبضة حكومة الضباط التي صنعت بالإخوان المسلمين، في تلك المرحلة من تاريخ مصر، ما أصبح معروفًا للكافة. وفي هذه الرسائل الوجيزة تأصيل لا يستغنى عنه للنظرية التربوية. ولست أغالي إن قلت إن كثيرًا من التجارب الواقعية التي ذكرتها في هذه الفصول مرده ومرجعه وأصله هو ما استفدته من حسن العشماوي، مما كتبه، ومن صحبتي إياه وملازمتي له منذ عرفته حتى وفاته رحمه الله.

لقد تعلمت دروسي الأولى في التربية من أبي، ثم صحبت شيخي العلامة الشيخ محمد مصطفى شلبي صحبة طويلة مثمرة، ثم تعرفت إلى أستاذي الجليل المستشار عبد الحليم الجندي، وصحبته مستفيدًا من مناهجه في الحياة أعظم فائدة. وإلى هؤلاء الأربعة الكبار في فتوتي ومطالع شبابي، بل في حياتي كلها، يرجع أكبر الفضل في الذي وفقني الله إليه من خير فيما ابتليت به من تجارب التربية لأولادي، ولغيرهم ممن هم في مثل منزلتهم عندي.

إنني اليوم أعتقد أن التجارب الواقعية أجدى وأنفع في نقل المنهج التربوي، وفي تطبيق القيمة النظرية، من الكتابة العلمية أو الفلسفية أو التاريخية عن التربية ونظرياتها ومناهجها. وهذا

(*) نشرته دار الفتح في بيروت سنة 1404هـ = 1984م؛ ثم نشرته دار التوزيع والنشر الإسلامية في القاهرة سنة 1412هـ = 1991م. وكنت قد نشرت فصوله، وعلقت عليها في حلقات، في مجلة الشهاب اللبنانية، في غضون سنة 1395هـ = 1975م.

الاعتقاد هو الذي دفعني إلى تدوين هذه الفصول ثم إلى نشرها. ثم كان القبول الذي لقيته ممن قرأها وتحدث إليَّ بشأنها دليلاً ـ عندي ـ على صحة ما اعتقدت.

وإنْ جعل الله في العمر بقية وعافية فإنني أرجو أن أكمل تحقيق أمنيتي بكتابة الفصول التي لم أكتبها مما ذكرته في مقدمة الطبعة الثالثة.

* * * * *

ولا يزال دَيني يتضاعف لابنتي العزيزة أمل العشماوي، مساعدتي العلمية، التي تمنحني وقتًا وجهدًا قل أن يمنحه أحد ـ راضيًا ـ لأحد. فجزاها الله عني خير ما جزى بنتًا عن أب.

والحمد لله الذي لا تحصى نعمه،

ولا يحد عطاؤه،

ولا تنقضي مننه،

فله الحمد، حتى يرضى، سبحانه.

محمد سليم العوَّا

القاهرة: قبيل عصر يوم الاثنين

22 من ربيع الآخر 1429هـ

2008/4/28م

تقديم الطبعة الثالثة

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله وآله وصحبه، وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،

فيسرني أن أقدم إلى القراء الطبعة الثالثة من هذا الكتاب الذي إن كان لأحد فضل في صدوره ـ يوم صدر ـ وفي انتشاره، فهو لدار نهضة مصر، ولاسيما لمدير النشر بها الأستاذ أسامة محمود، فجزاه الله خيرًا.

وقد صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب قبل سنة وعدة شهور، ولم أتمكن يومئذ من إعادة النظر فيه لأصلح ما ندَّ من أخطاء القلم أو الطباعة، ولأستكمل ما فاتني من معنًى أو مبنًى. فلما أرادت دار نهضة مصر إصدار هذه الطبعة الثالثة توفرتُ على الطبعة السابقة فأصلحتُ ما رأيته فيها من هفوات الطباعة، ومن سبق القلم أو سبق الفكر، وخرَّجتُ ما فيها من أحاديث نبوية، أو روايات عن الصحابة، وأضفتُ في معظم فصول الكتاب فقرات جديدة، كان أكثرها استجابة لنصيحة أو مشورة من بعض من قرأوا الطبعة السابقة، وأقلُّها من إعادتي النظر في الكتاب وملاحظاتي الشخصية عليه.

وأكثر ما أضفته في هذه الطبعة اقترحته عليَّ زميلتي، المديرة التنفيذية لمكتبي للمحاماة منذ نحو عشرين سنة، الأستاذة سهير

الخياط، المحامية بالنقض. وقد تركت ـ غير متعمدٍ ـ بعض ما طلبت مني، أو اقترحت عليَّ إضافته. ولم يكن ذلك إلا لأن «الواجبات أكثر من الأوقات»[1].

* * * * *

إن مما أحب كتابته، وقد طلبته هي وغيرها مني، فصل عن العلاقة التربوية بين الأجداد والأحفاد.

وفصل عن العلاقة التربوية بين المعلمين والتلاميذ.

وفصل عن تجربة الزواج للمرة الثانية وأثرها التربوي، سواءً أكان الزواج الثاني لترمل أحد الزوجين، أم لانفصام عروة الزوجية بالطلاق، أم كان لأن الرجل اتخذ زوجة ثانية في حياة زوجته الأولى.

وفصل عن المسائل الحرجة أو الحساسة في التربية، لاسيما في تربية الصغار. وبعض هذه المسائل يتعلق بالعقيدة الدينية، وبعضها يتعلق بالأوضاع العامة من سياسية واقتصادية وثقافية في العالم بوجه عام وفي الوطن بوجه خاص، وبعضها يتعلق بتعويد الأبناء احترام المخالفين في الدين واللغة، والمختلفين في الأصل واللون والمكانة الاجتماعية، وغيرها من وجوه الاختلاف.

وأتمنى، إن كان في العمر بقية وطبع الكتاب طبعة رابعة، أن أضيف إليه فصلاً عن أثر الشارع والحيِّ في التربية. وهو أثر أدركه

(١) كان الأستاذ حسن البنا، المرشد المؤسس لجماعة الإخوان المسلمين يضع فوق مكتبه لوحة كتب عليها: «الواجبات أكثر من الأوقات، فإن كانت لك حاجة فأوجز في طلبها». وهي حكمة جليلة ينبغي أن ندخلها في سلوكنا التربوي، فيتعلم الأبناء ألا يبدأوا كل حكاية ـ كما يفعل بعض الكتاب وبعض الخطباء ـ من خلق آدم!!

جيلنا وأفاد منه بعضنا وأضير بسببه بعض آخر، لكنه أثر مهم في الحالين.

وفي خاطري أن بعض صور التوجيه الأبوي تحتاج إلى عناية خاصة لم يتسع لها الوقت وأنا أصنع هذه الطبعة، وأرجو أن يتاح لي استدراكها في الطبعة التالية إن شاء الله.

* * * * *

لقد اعتنى بهذا الكتاب في طبعته السابقة عدد كبير ممن قدَّموا إليَّ بشأنه رأيًا أو اقتراحًا أفدت منه ولا أستطيع أن أذكرهم جميعًا. وأخشى إن حاولت ذلك أن أسقط بعض الأسماء سهوًا فأقع في تقصير في شكر ذي فضل، لا أحبه لنفسي.

لكنني لا أستطيع إغفال ما قدمه الابن العزيز الأستاذ سليمان إبراهيم سليمان، أستاذ اللغة العربية في مدرسة (بلزاك) الفرنسية بالقاهرة. لقد قرأ الطبعة الثانية من هذا الكتاب قراءة دقيقة، وعلق على كثير من المواضع تعليقات صائبة أشكره عليها.

ولا أستطيع ـ كذلك ـ إغفال فضل مساعدتي: الابنة العزيزة أمل العشماوي، التي لولا جهدها المتواصل، وإلحاحها الذي لا يتوقف، ما استطعت إنجاز ما أنجزته من عمل علمي وثقافي في السنتين الماضيتين. ولها عندي أن أضيف إلى الطبعة التالية من هذا الكتاب ما اقترحته من موضوعات مهمة، ذكَرَتْ أغلبها وأنا أعد هذه المقدمة(!).

* * * * *

لقد كان من فضل الله عليَّ أن انتفع كثير من الناس بهذا الكتاب، وتجشّم عدد منهم عناء الاتصال بي، أو زيارتي، لا لشيء إلا ليذكر هذا لي.

وأنا أسأل الله ـ سبحانه ـ أن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقتيها، وأن يكتُبَ عملي الصالح ويمحُوَ تفريطي وتقصيري وزلتي... وكل ذلك كان مني، وهو سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة.

والحمد لله رب العالمين

محمد سليم العوّا

القاهرة ليلة الثلاثاء: 15 من ربيع الأول 1428هـ

الموافق: 2007/4/3م

مقدمة

يتوزع دعاةَ الإصلاح في العالم الإسلامي اتجاهاتٌ متعددةٌ، واهتمامات متباينة، ومناهج متغايرة وطموحات شتى.

فهناك من يتجهون وجهة إصلاح شؤون المال والاقتصاد، باعتباره عصب الحياة وقوامها؛

وباعتباره الوقود الضروري لكل عمل في مجالات البناء والتقدم؛

وباعتبار تحقيق حِلِّ الكسب وطيبه من أهداف الإسلام الأساسية التي يسعى إلى أن تلتزم بها الجماعات والأفراد سواء بسواء.

وهناك من يوجهون جهودهم الإصلاحية في اتجاه العمل السياسي والشعبي؛

باعتبار حق الأمة في المشاركة في إدارة شؤونها العامة حقًّا أصيلاً كفلته نصوص القرآن الكريم، وممارسات الرسول ﷺ، وباعتبار سر تخلفنا وتقدم غيرنا هو افتقادنا روح العمل الجماعي والمسؤولية العامة التي يستشعر كل فرد منا قسطه فيها؛

وهذه الروح لا تسترد، وعافية الأمة لا تعود، إلا إذا استعادت في كل أقطارها حقها في صنع القرارات التي توجه سعيها في حاضرها ومستقبلها.

وهناك من يجعل أكبر همه إصلاح أحوال الأسرة الإسلامية، خشية أن يصيبها ما أصاب الأسرة الغربية - في مجملها - من انهيار

وتفكك، وتحسبًا ليوم تستشري فيه عدوى التقليد للمجتمعات غير الإسلامية، فيصعب فيه رأب الصدع أو رتق الخرق.

وهناك من يرى توجيه جهده كله إلى إصلاح نظم الإعلام وأجهزته من الصحافة إلى الإذاعة، المسموعة والمرئية، إلى المسرح وصناعة السينما. وهؤلاء يرون أثر هذه الأجهزة التي تدخل كل بيت نتيجة للتقدم التقني المذهل في صناعة التسجيل والعرض وأدواتهما، أكبر من أثر أي جهاز آخر، أو نظام آخر من الأجهزة العاملة في المجتمع والنظم المؤثرة فيه.

* * * * *

ولا مراء في أن معنى الإصلاح، الذي نتطلع إليه في العالم الإسلامي ونحتاجه، يشمل ذلك كله. ويشمل غيره مما تتجه إليه همم الداعين إلى الإصلاح والعاملين له في كل بقعة من بقاع الأرض الإسلامية، وفي كل مجال من مجالات العمل العام.

غير أن السؤال الذي يلح على النفس، ولا يمل من طلب الجواب هو: من أين يبدأ الإصلاح؟

وإذا كنا نريد إصلاحًا شاملاً لا يدع من حياة الأمة جانبًا إلا أصابه بماء الحياة، ورد إليه روح القوة والعزة، فكيف نبدأ خطتنا له، وأي أرض نستنبت فيها بذوره الأولى؟

ولطالما تردَّدتُ في الإجابة عن هذا السؤال، ولطالما ردَّدتُ صورًا من الإجابات الممكنة عنه، إلى أن استقر في يقيني أن أساس النجاح في كل مخططات الإصلاح هو الإنسان، وأن المرحلة التي يتوجه إليها العمل الإصلاحي، الذي يغلب على

الظن أن ينجح ويؤتي ثمرته، تبدأ بإصلاح التربية التي نمارسها مع أطفالنا وناشئتنا.

وما أيسر هذه الإجابة وأسهلها، بادي الرأي(!) وهي في حقيقتها تعني اتخاذ منهج صعب ذي أمد طويل، يغلب على الظن أن لا يرى أصحابه ثمرته ولا يدركوا حين قطافها، ولكنهم مؤمنون أن غرسهم ـ بإذن الله ـ مثمر، وأن شجرتهم ثابتة الأصل باسقة الفروع.

فأما أنه منهج صعب، فلأنه يقتضي أن يغير الكبار من آباء وأمهات، ومعلمين ومعلمات، ومسؤولين في مختلف المواقع والدرجات، في أنفسهم، ما شبوا ـ وربما شابوا ـ عليه من منهج في معاملة الأطفال والناشئة يتسم أكثر ما يتسم بالإهمال وعدم الاهتمام، ويتسم في أحيان كثيرة بالإفراط في القسوة والشدة، أو بالإغراق في اللين والتدليل.

وهو منهج صعب؛ لأنه يقتضي مراجعة دائمة لمدى نجاحه أو إخفاقه، ومتابعة قد تصل إلى المستوى الفردي لكل مربٍّ وكل مشتغل بالتربية: التربية بمعناها العام الذي نمارسه جميعًا، لا بمعناها الفني الذي تمارس به في المدارس والمعاهد ورياض الأطفال.

وأما أنه منهج طويل المدى بعيد الأمد؛ فلأنَّكَ إذا بدأت به اليوم فأنت لا تدري متى ترى ثمرته، فقد تنضجها عشر سنين في أقرب الآجال، وقد تزيد هذه المدة إلى ما فوق العشرين سنة!!

ولأنه منهج صعب، وطويل مداه، فقد أعرض كثير من الناس عنه، وغفل كثير من المفكرين عن إيلائه ما يستحقه من عناية.

ولكنه منهج ـ بالرغم من ذلك كله ـ ممكن ومجرَّبٌ تجربةً قابلة دائمًا للتكرار.

* * * * *

وإذا كان الأطفال والناشئة ـ في هذا الزمن ـ يتعرضون لمؤثرات شتّى تصنع فيهم صُنْعها: خيرًا كان أم شرًّا، فإن تأثير الآباء والأمهات أبقى وأفعل في نفوس الأولاد والبنات من كل تأثير سواه؛ لذلك كان من واجب المعنيين بالإصلاح، من الباب الذي وصفت، أن يولوه ما يستحقه من العناية، وأن يُبدِئوا القول فيه ويعيدوه، وألا يملّوا تكراره، وأن يفعلوا ذلك فيمن يليهم من أهل وذوي قربى بقدر ما يفعلونه علانية بحيث يبلغ الكافة. فإن أحدًا لا يستطيع أن يعرف من الذي سينتفع بكلمة طيبة انتفاعًا مباشرًا، ومن الذي سيحملها إلى غيره فيستمر النفع بها وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ففي الحديث الصحيح أنه: «... **رب مبلَّغ أوعى من سامع؛ ورب حامل فقه غير فقيه؛ ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»[1].

* * * * *

إن البيت العربي يعاني معاناة لا يستطيع أن يغفلها منصف متابع لشؤون أمته. ولكن هذا البيت لا يسعه أن يلقي تبعة هذه المعاناة، وتبعات أسبابها ـ كما يحلو لأكثرنا أن يفعل ـ على العوامل الخارجية

(1) رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عن عبد الله بن مسعود وغيره. انظر كشف الخفا للعجلوني رقم (2813)؛ وهو في الترمذي برقم (2657)؛ وفي أبي داود عن زيد بن ثابت برقم (3660).

من استعمار غربي، وعداوة صليبية، وطغيان مستمر، وإعلام يساء توجيهه، وصحافة تقدم بعض الحق وتكتم بعضه، وقدوة مفقودة... إلى آخر تلك القائمة من الأسباب التي هي حقيقية وواقعية لكنها ـ قطعًا ـ لا تصلح وحدها لتعليل ما نحن فيه كله.

ولولا أن «البيت العربي»، بالمعنَيَيْن: الحقيقي الضيِّق، والمجازيِّ الواسع، قد استجاب لهذه العوامل؛

واستنام لفعلها في المجتمع؛

وترك مقاومتها منذ البدء؛

واستمد في أحيان كثيرة قيمه المقبولة لدى العامة من مصادرها، لولا ذلك، ما كانت هذه الأسباب قادرة على أن تفعل فعلها الشنيع الواقع الآن بأمة العرب والمسلمين.

واتخاذ «التربية» بصورتها الأولية الأسرية طريقًا للتغيير **يقتضي استشعار كل أسرة مسؤوليتها الكاملة عن الآفات المجتمعية السائدة كلها، ويقتضي تكاتف كل أسرة لمواجهة هذه الآفات المجتمعية في أبنائها وبناتها وأنفسها؛ ليخلص مجتمعها الصغير ـ أولاً ـ من آثارها، ثم ليتكاتف البرءَاءُ من المرض الاجتماعي لنشر العافية، بدلاً من أن يسهموا بسكوتهم واستكانتهم في نشر البلاء واتساع نطاق الأدواء.**

* * * * *

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105]. فيرتب الله ـ تعالى جَدُّهُ ـ في هذه الآية امتناع الضرر على اتباع الهدى. فإذا استكانت

الأمة لما يصنع بها ويُكادُ لها فإنها ـ في هذا الخصوص ـ لا تكون من المهتدين الهداية الكاملة التي تجعلها خير أمة أخرجت للناس.

ولذلك وقف أبوبكر رضي الله عنه ـ خطيبًا ـ في أصحاب رسول الله ﷺ، حين فسر بعضهم هذه الآية على غير وجهها الصحيح، وقال لهم: «**إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه**»[1].

وفي بيان صحة هذا الفهم للآية الكريمة قال الإمام الطبري: «وإنما قلنا إن هذا أولى التأويلات في ذلك بالصواب؛ لأن الله تعالى ذِكْرُه، أَمَرَ المؤمنين أن يقوموا بالقسط، ويتعاونوا على البر والتقوى، ومن القيام بالقسط الأخذ على يَدَيْ الظالم، ومن التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف... (و) قد دخل في معنى قوله (إذا اهتديتم)... أن ذلك إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر»[2].

ومن جميل فهم بعض ذوي النظر في هذه الآية الكريمة أن قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يقتضي إغراء الإنسان بمصالح نفسه ويتضمن الإخبار أنه لا يعاقب بضلال غيره. وهي (أي الآية) تدل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدليل قوله تعالى فيها: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

(1) سنن أبي داود رقم (4338)؛ وسنن الترمذي رقم (3057)؛ وسنن ابن ماجه رقم (4005).

(2) باختصار من تفسير الطبري، جـ152/11، من طبعة الشيخ شاكر؛ وجـ65/7 من طبعة المطبعة الأميرية سنة 1327هـ.

وليس أولى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في البيت المسلم منْ أفراده أنفسهم؛ لأننا إذا جمعنا معاني هذه الآية الكريمة مع الأمر القرآني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] وجدنا أن واجب الإنسان ليس محض إصلاح نفسه، بل إن من واجبه السعي ـ في الوقت نفسه ـ إلى إصلاح غيره، وأولُ الذين يجب عليه السعي إلى صلاحهم هم ذووه وأهله[1].

* * * * *

وآفات المجتمع العربي والإسلامي تدخل كلها في المنكرات التي يجب تغييرها.

وللتغيير طريقان: طريق خارجي: بمواجهة أصحاب هذه الآفات والمنكرات، والأخذ على أيديهم ومنعهم من تثبيت أسباب التخلف والهوان اللذين نعانيهما. **وطريق داخلي**: هو إعادة صياغة النفوس وصناعتها من جديد، بحيث ترفض الأمة ما يقدم إليها من أسباب الفساد والانحراف والتبعية والتخلف مهما حاول أصحابه تزيينه وتجميله وإخفاء قبحه.

وليس الطريق الأول ممكنًا لكل أحد، ولا هو مأمون العاقبة في كل مكان وفي كل الأزمان؛ لذلك كان لابد من سلوك الطريق الثاني

(1) راجع الفصول (24) و(25) و(26) و(27) من كتابنا: الفقه الإسلامي في طريق التجديد، الطبعة الثالثة، سفير الدولية للنشر، القاهرة 2007 ص207: 226، ففيها خلاصة نافعة عن «فقه التربية» وأصوله القرآنية والنبوية.

الذي لا يكاد يعجز عنه إنسان واع مدرك لمسؤولياته الفردية والاجتماعية. وهو طريق مضمون النجاح مهما بدت نتائجه بعيدة، فبقدر طول المدى الذي يستغرقه سلوكه، يكون ثبات النتائج التي يوصل به إليها.

ولهذا المنهج التربوي في التغيير قسمات قرآنية ونبوية ظاهرة، فقد رَبَّى القرآن أصحاب محمد ﷺ على معانٍ هي أهم ما نحتاج إليه لإعادة بناء الأمة العربية والإسلامية لتخرج من محنتها الحاضرة.

■ ربَّى القرآن الكريم على التوحيد الذي يعني ـ فيما يعنيه ـ أن الإنسان ليس عبدًا إلا لله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: 65].

والتربية على التوحيد الخالص هي العلاج الناجع لكل أدواء القهر والطغيان والفردية، وما يورثه ذلك من آفات النفاق والرياء وما إليها... ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بحق ـ إن «العبودية هي عبودية القلب، والحرية هي حرية القلب، وإن المرء كلما ازداد عبودية لله تعالى ازداد تحررًا عمن سواه»!![1].

■ وربَّى القرآن الكريم على الصدق؛ فالكذب آفة من آفاتنا الكبرى، لا ينجو منها إلا من عصم الله، وقليل ما هم[2].

(1) رسالته: العبودية ط المكتب الإسلامي بدمشق 1382 هـ ص 47 وانظر ص57 أيضًا.
(2) تناولت هذا الموضوع تفصيلاً في كتابي: الفقه الإسلامي في طريق التجديد، السابق، ص208 وما بعدها.

ولعلاجها يأمرنا القرآن الكريم بمثل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70].

- ويحذرنا القرآن الكريم من الكذب على الله بمثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: 69] ومن الكذب على الناس بمثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28].
- والقرآن الكريم ربَّى على طهارة النفس، وسلامة القلب. وهما مجمع الفضائل البشرية كلها، وحجاب السيئات البشرية جميعها، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس: 7 – 10].

وإبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ يحكي عن يوم القيامة، والقرآن ينقل قوله مقرًّا له: ﴿... يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء: 88 – 89].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)﴾ [ق: 31 – 33].

■ والقرآن الكريم ربَّى على التحكم في الأهواء، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26]. ويقول تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71]. ويقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ [النازعات: 40 – 41].

وهكذا رَبَّى القرآن الكريم على عشرات المبادئ الخلقية الكفيلة، إذا استدعيت أصولها القرآنية، وأعيدت صياغة العلاقات الفردية والاجتماعية على أساسها، أن تغير كل مظاهر الخلل المتغلغلة في أوضاع حياتنا كلها.

وقد صنع رسول الله ﷺ هذا الصنيع حين وضع المبادئ القرآنية السامية موضع التطبيق العملي في تربية جيل الصحابة، فتحولوا من عبدة أوثان إلى أئمة التوحيد الحق، ومن وائدي البنات إلى أعظم حماة لحقوق الإنسان في التاريخ البشري كله.

ولم يهدم النبي ﷺ من أوضاع العرب الجاهليين إلا ما كان فاسدًا فسادًا تامًّا، مستعصيًا على الإصلاح بأية صورة من الصور، وأبقى ما سوى ذلك مما ينفع الناس ولا يعارض القواعد القرآنية في العقيدة والأخلاق والسلوك.

* * * * *

بعناية ـ في أرضنا الخصبة المعطاء؛ لتؤتي أكلها بعد حين بإذن ربها. أو أن يفتح ما يستطيع من النوافذ ليدخل الهواء النقي الشافي، والنور الطبيعي الهادي، إلى غرفات البيت التي طال بها الإظلام والإعتام. وأن يُحْدِثَ ما يمكنه إحداثه من ثغرات في جدار الأزمة الخانقة التي تأخذ بتلابيب الفرد والأسرة والأمة جميعًا؛ ليسهل بعد ذلك ـ لجيل آتٍ لا محالة ـ أن يتجاوز الأزمة كلها، وأن يهدم بقاياها، وأن يقدم دليلاً صحيحًا على أننا أهل للحفاظ على ما وُرِّثْنا من علم، وحضارة، وثقافة، وثروة؛ وتنميةِ ذلكَ كله لخير الإنسان حيث كان.

* * * * *

ولا يجوز لأحد أن يقعد عن أداء نصيبه من محاولة التغيير المنشود بدعوى أنه ليس قادرًا وحده على مواجهة التيار الغالب في مجتمعه، الذي لا يؤمن بمثل قيمه الخلقية الفردية والجماعية ولا يتوجه نحو أهدافه وغاياته... لا يجوز ذلك لأحد؛

لأن الواجب لا يسقط بترك الناس له؛

والقيم الصحيحة لا تموت لانحراف الناس عنها؛

والإرادة الصادقة لا تعجز عن مواجهة القوى المخالفة مهما بدت طاغية ومسيطرة في لحظة زمنية بعينها؛

وعلى المقتنع بذلك أن يبدأ بنفسه، وبمن يليه من أبنائه وبناته وأهله، وأن يصنع ذلك كما لو لم يكن في المجتمع صالح أو مصلح سواه(!) وهذا هو الواجب الواقع على عاتق كل أحد.

وهذا هو جواب السؤال الذي يلح على كثيرين وكثيرات من الطيبين الصالحين المخلصين: ماذا نفعل؟

والأمثلة التي تقدمها فصول هذا الكتاب ليست إلا نماذج لما لا يحصى من القيم التي نحتاج إلى استبقائها، أو إحيائها، ولما لا يحصى من الوسائل التي يحسن كل منا اصطناع ما يوفق إليه منها، أو اختراع غيرها. وهي لا ترمي إلا إلى تقديم صورة تجربة حية لمن أحب أن يُلقيَ السمع وهو شهيد.

وهذا النوع من الجهد الذاتي، الذي تمارسه أسر صغيرة في أبنائها وبناتها، هو سر النماذج الكثيرة التي نراها في حياتنا اليومية فنَصِفُها: «بالتفرد» ونصفها: «بالغرابة» ونصفها: بأنها تنتمي إلى «جيل قديم» ونصفها: بأنها «الاستثناء» من قاعدة لا تشبهها في كثير ولا قليل. هذه النماذج نتيجة محاولات فردية للمحافظة على القيم الأصيلة لهذه الأمة يقوم بها ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ [هود: 116].

والذي نعمل له، ونرجو أن تعين هذه الفصول عليه، هو توسيع قاعدة هؤلاء الناهين عن الفساد، والداعين إلى الصلاح، الممارسين ذلك فعلاً في أنفسهم وفي أبنائهم وبناتهم، وفيمن يلون أمورهم من الناس: بأية صفة كانت هذه الولاية.

* * * * *

وليس هذا الكتاب شرحًا نظريًّا لما ألمحت إليه من الشأن التربوي وكيفية إصلاحه، ولا هو تأمل فلسفي في العلاقة بين الآباء والأبناء، أو بين المربين: إعطاءً، والمتلقين عنهم: أخذًا أصمَّ وتلقينًا، أو فهمًا مبصرًا مستنيرًا؛ ولكنه تجارب واقعية، أكثرها شخصي، رأيت

ثمرتها القريبة فاطمأننت إلى صحتها في المدى البعيد. وعلمت أن الاحتفاظ بها لنفسي من الشح المذموم، فكتبتها متفرقة في أوقات متقاربة ومتباعدة؛ فلما نشر عدد منها في صحيفة «الأسبوع» المصرية، وقبلها بسنوات في صحيفة «الشرق الأوسط» الدولية، وفيما بينهما في مجلة «العربى» الكويتية، طلب كثير من إخواني، وبعض من هم في عداد أساتذتي، أن أوالي الكتابة في هذا الباب، وأن أجمع ما يتم لي منها ليكون أبقى بين أيدي الناس. وأحاطت بي الشواغل الصارفة أكثر من سنتين لم يتيسر لي فيهما أن أنظر في آخر ما كتبت من تلك الفصول أو أضيف إليه. ثم قُيِّضَ لي الأخ النابه الأستاذ أحمد عبد الرحيم، فلم يزل بي حتى حملني على الاقتناع بأنه من الضروري أن تجمع هذه الفصول من مواضع تفرقها، وأن يُوَسَّع نطاق النفع بها. وأذن الله ـ لما ادخره في سابق علمه ـ أن أستجيب له، وأن أضيف إلى ما سبق نشره فصولاً جديدة زادت على ما نشر أصلاً، وأن أعيد في الفصول الأولى النظر تنقيحًا وتصحيحًا؛ فكان هذا الكتاب. فما كان فيه من خير وصواب فمن فضل الله وحده، وما كان غير ذلك فمني ـ ومن تقصيري ـ وأستغفر الله.

والحمد لله في البدء والختام.

الخميس 27 من جمادى الأولى 1425هـ

الموافق 2004/7/15م

(1)
هديــة ابنتــي

أهدتني ابنتي هدية جميلة. أهدتني قطعة من حجر مصنوعة على شكل (حجر رشيد) الذي اكتشفه الفرنسيون، وحل ألغازه (شامبليون)، وانفتح بذلك الباب الواسع الذي دلف منه كل الباحثين في الحضارة المصرية القديمة.

كان أجمل من الهدية نفسها بطاقة، أرفقتها ابنتي بها، قالت: «أبي.. أول مرة سمعت عن حجر رشيد كان منك، ثم أهديتني قصة عنه، ومنذ ذلك الحين والحجر بالنسبة لي رمز لأسرار العلم ومفتاح لتاريخ مضى.. ودليل حيٌّ على تفاعل الحضارات والتقاء الشعوب».

عادت بي هذه الكلمات إلى ذكريات طفولة بناتي وأبنائي. كنت دائمًا مشغولاً بأعمال ومهمات أكثر مما أستطيع توفيره للبنات والأبناء من الأوقات. واستشَرْتُ ـ في أول عهدي بالأبوة ـ أبي ـ رحمه الله ـ فيما يجب أن أوازن به بين مشاغلي وبين واجبي نحو أولادي. فقال لي: **خصص لأولادك أوقات الطعام(!)**

احرص على أن تأكل وجبة على الأقل يوميًّا معهم؛

وأطِلْ زمن المكوث على المائدة؛

وتحدث معهم بكل أنواع الحديث.

وأتيح لي بعد قليل أن أسأل عن الأمر نفسه أستاذنا العلامة عبدالحليم الجندي أحد أعلام القانون والفكر الإسلامي في عصرنا،

وأحد أذكياء الدنيا وأوفيائها ـ رحمه الله ـ[1] فكرر عليَّ مقولة أبي تقريبًا، وزادني أنه كان يحكي على مائدة الغداء لزوجته وأبنائه كل شيء حتى غرائب الحياة ـ وما أكثرها ـ التي كانت تصادفه في عمله وهو مستشار ثم رئيس لهيئة قضايا الدولة!

وسألته يومها: ولماذا تحكي لهم عن شؤون العمل؟

قال: إنها مدرسة الحياة أنقلها إليهم قبل أن يدخلوها، كما كان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ يستعد بالرأي الفقهي للبلاء قبل وقوعه، حتى إذا وقع عرف الدخول فيه والخروج منه!

ثم صحبتُ أستاذي، وشيخي، في العلم القانوني والعمل المهني، والسياسة والثقافة، حسن العشماوي ـ رحمه الله ـ فرأيته يصنع عمليًّا ما نصحني به أبي وعبد الحليم الجندي(!) وتأكدت بصحبة أبنائه وبناته من جدوى هذا الصنيع في صغير الأمور وكبيرها.

وهكذا فعلتُ.. فخصصت لأولادي أوقات الطعام.

وأوقات اصطحابهم إلى المدارس وإعادتهم إلى البيت، بعد أن أصبحت السيارات هي وسيلة المواصلات وتباعدت معاهد التعليم عن أماكن السكن، فكان ذلك وقتًا إضافيًّا منحه الله لي؛ لكي أجعله للبنات والبنين.

وأذكر الآن أننا كنا في رحلات الذهاب إلى المدرسة والعودة منها لا نكتفي بالأحاديث العابرة وإنما كنا نأخذ مواضيع

(1) أشهر من تولّى رئاسة هيئة قضايا الدولة منذ كانت (قلم القضايا) ثم (إدارة قضايا الحكومة)، وأعظم هؤلاء الرؤساء أثرًا في عملها وفي المئات من أعضائها حتى اليوم. وقد كان لعدة عقود عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

كاملة، دينية أو تاريخية أو أدبية أو سياسية أو عائلية، فنتحدث في كل منها رحلات ذهاب وعودة متوالية، ولعدة أيام أحيانًا؛ حتى ننتهي منها!

* * * * *

في أوقات كثيرة كان يصحبنا في الرحلة إلى المدرسة والعودة منها أبناء بعض الأصدقاء وبناتهم. وهؤلاء كانت لهم اهتمامات مختلفة عن اهتمامات البنات والأبناء؛ فكنت أبدأ الحديث معهم بما يجعلهم يتحدثون عن اهتماماتهم، ويحكون بعض معارفهم عن موضوعاتها. وقد أسوق سؤالاً أو سؤالين أتعرف من إجاباتهم عنها على جوانب تحتاج إلى إفهام أو إيضاح أو بيان لأمر لم نتعرض له ـ الأولاد والبنات وأنا ـ في سابق الأيام.

كانت هذه فرصة ثقافية مهمة، تعلمت ـ من تكرار صحبة أبناء الأصدقاء ـ أن أستثمرها في إدارة حوار بين الصغار يُمَكِّنني من التقرب إلى نفوسهم الغضة، والتعرف على أفكارهم البريئة، والوقوف على أسئلتهم الحيرى في مسائل لا يخطر على بال أكثر الآباء والأمهات أنها تجول في نفوس الصغار باحثة عن إجابة؛ واكتشفت في أثناء هذه الرحلات المدرسية أن الصغار إذا لم يجدوا عند الكبار جوابًا لما يشغلهم وقعوا في أحد أمرين: إما أن يتساءلوا فيما بينهم عنها ويتلقوا الجواب من أقرانهم الذين لا يفوقونهم علمًا ولا معرفة وإنما قد يكونون أسرع بديهة وأوسع خيالاً، وإما أن يخترعوا هم جوابًا لتلك المسائل، ويصدقوه، ويعتبروه الحقيقة

الخالصة، ويطووا عليه نفوسهم حتى يصبح مع الزمن في مقام العقائد الراسخة التي يحتاج تغييرها إلى جهد هائل من المربين، وإلى زمن طويل ومثابرة على التكرار لإقناع الفتى أو الفتاة بغير ما أقنع به نفسه!

ولم يكن ذلك في الأفكار والأسئلة المعرفية فحسب، لكنه كان كذلك فيما يهمل الآباء والأمهات تصويبه من كلمات وحروف يعوجُّ بنطقها لسان الصغار فيثير اعوجاجه ضحك الكبار، أو سخريتهم، أو غضبهم، لكنهم لا يبذلون ما يجب عليهم نحو تقويمه لينطق الكلمة أو الحرف النطق الصحيح. رأيت فتاة ناضجة ـ هي الآن أم صالحة ـ تصرُّ على نطق حرف (غين) بدلاً من حرف (الخاء) من كلمة (خُسر) في سورة (العصر) فتقول (غُسر)!! فحاولت إصلاح نطقها للكلمة القرآنية، وهي في كل مرة تنطقها كما تعودت. سألت أباها عن سرِّ ذلك فأجابني ـ وهو شبه سعيد بذكريات طفولة ابنته ـ أنها هكذا سمعتها ممن كانت تعلمها، وأن أمها حين حاولت إصلاح نطقها كان هو يستعيدها النطق الخاطئ، ويضحك عند سماعه. والأم تغاضبه وتنهر البنت لما تفعله، وهو يستعيدها فعله ويهتز من الضحك لسماعه!

أدركت آنئذ أن البنت كانت ضحية هذا التناقض في سلوك الأبوين. ولم تكن الأم ـ وحدها ـ قادرة على إقناعها بأنها التقطت الحرف من معلمتها التقاطًا خاطئًا، وكان الأب المحب للضحك عونًا لابنته على التمسك بما أخطأت أذنها التقاطه من نطق المعلمة. وعندما استطعتُ، في نهاية الأمر، أن أعلِّم الفتاة نطق

الكلمة نطقًا صحيحًا رأيتها تتنفس الصعداء، وكأنها تخلصت من هم ثقيل كان يؤودها حمله، وقالت لي فيما يشبه الإفضاء بسر عظيم إنها كانت تظن المكتوب في المصحف خطأً إملائيًّا، وكانت تظن أن أمها ـ لأن دراستها كانت في مجال العلم التطبيقي ـ لم تفطن إليه وكانت موقنة أن أباها لم يكن يضحك منها وإنما كان يضحك من محاولات الأم نقل النطق الخاطئ إليها بدلاً من إصلاح كتابة مصحفها!!

* * * * *

بعد سنين مررت في بيتي بتجربة مماثلة استفدت فيها من تجربة تلك الفتاة.

عاد أحد الأبناء إلى المنزل ذات يوم، وراجعت معه في سويعة بعد الغداء ما دَرَسَهُ فذكر لي بعض آيات القرآن الكريم، فطلبت منه قراءَتها فأخطأ في نطق بعض حروفها. كانت تملأ ذاكرتي ساعتها قصة فتاة (الغُسر)، فطلبت منه كتابه المدرسي فوجدت الآيات مكتوبة كتابة صحيحة، وسألته هل ينطقها كما نطقها المدرس في الفصل، فأجاب بنعم. فصححت له نطقه، وصحبته صباح اليوم التالي إلى المدرسة، ولقيت معه مدرسه، ثم صرفته قائلاً له: إن بيني وبين أستاذك حديثًا لا أحب لك سماعه.

سألت الأستاذ أن يقرأ لي الآيات التي درَّسها للأولاد بالأمس. فقرأ كما قرأ ابني، قراءةً خاطئة(!) عندئذ بينت له وجه القراءة الصحيحة، ورجوته أن يعيد القراءة للأولاد بها لأن هذا حق القرآن وحق تلامذته عليه. وكم كانت فرحتي عندما عاد ابني في ذلك اليوم

وأحد أذكياء الدنيا وأوفيائها ـ رحمه الله ـ[1] فكرر عليَّ مقولة أبي تقريبًا، وزادني أنه كان يحكي على مائدة الغداء لزوجته وأبنائه كل شيء حتى غرائب الحياة ـ وما أكثرها ـ التي كانت تصادفه في عمله وهو مستشار ثم رئيس لهيئة قضايا الدولة!

وسألته يومها: ولماذا تحكي لهم عن شؤون العمل؟

قال: إنها مدرسة الحياة أنقلها إليهم قبل أن يدخلوها، كما كان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ يستعد بالرأي الفقهي للبلاء قبل وقوعه، حتى إذا وقع عرف الدخول فيه والخروج منه!

ثم صحبتُ أستاذي، وشيخي، في العلم القانوني والعمل المهني، والسياسة والثقافة، حسن العشماوي ـ رحمه الله ـ فرأيته يصنع عمليًّا ما نصحني به أبي وعبد الحليم الجندي(!) وتأكدت بصحبة أبنائه وبناته من جدوى هذا الصنيع في صغير الأمور وكبيرها.

وهكذا فعلتُ.. فخصصت لأولادي أوقات الطعام.

وأوقات اصطحابهم إلى المدارس وإعادتهم إلى البيت، بعد أن أصبحت السيارات هي وسيلة المواصلات وتباعدت معاهد التعليم عن أماكن السكن، فكان ذلك وقتًا إضافيًّا منحه الله لي؛ لكي أجعله للبنات والبنين.

وأذكر الآن أننا كنا في رحلات الذهاب إلى المدرسة والعودة منها لا نكتفي بالأحاديث العابرة وإنما كنا نأخذ مواضيع

(١) أشهر من تولَّى رئاسة هيئة قضايا الدولة منذ كانت (قلم القضايا) ثم (إدارة قضايا الحكومة)، وأعظم هؤلاء الرؤساء أثرًا في عملها وفي المئات من أعضائها حتى اليوم. وقد كان لعدة عقود عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

كاملة، دينية أو تاريخية أو أدبية أو سياسية أو عائلية، فنتحدث في كل منها رحلات ذهاب وعودة متوالية، ولعدة أيام أحيانًا؛ حتى ننتهي منها!

* * * * *

في أوقات كثيرة كان يصحبنا في الرحلة إلى المدرسة والعودة منها أبناء بعض الأصدقاء وبناتهم. وهؤلاء كانت لهم اهتمامات مختلفة عن اهتمامات البنات والأبناء؛ فكنت أبدأ الحديث معهم بما يجعلهم يتحدثون عن اهتماماتهم، ويحكون بعض معارفهم عن موضوعاتها. وقد أسوق سؤالاً أو سؤالين أتعرف من إجاباتهم عنها على جوانب تحتاج إلى إفهام أو إيضاح أو بيان لأمر لم نتعرض له ـ الأولاد والبنات وأنا ـ في سابق الأيام.

كانت هذه فرصة ثقافية مهمة، تعلمت ـ من تكرار صحبة أبناء الأصدقاء ـ أن أستثمرها في إدارة حوار بين الصغار يُمَكِّنني من التقرب إلى نفوسهم الغضة، والتعرف على أفكارهم البريئة، والوقوف على أسئلتهم الحيرى في مسائل لا يخطر على بال أكثر الآباء والأمهات أنها تجول في نفوس الصغار باحثة عن إجابة؛ واكتشفت في أثناء هذه الرحلات المدرسية أن الصغار إذا لم يجدوا عند الكبار جوابًا لما يشغلهم وقعوا في أحد أمرين: إما أن يتساءلوا فيما بينهم عنها ويتلقوا الجواب من أقرانهم الذين لا يفوقونهم علمًا ولا معرفة وإنما قد يكونون أسرع بديهة وأوسع خيالاً، وإما أن يخترعوا هم جوابًا لتلك المسائل، ويصدقوه، ويعتبروه الحقيقة

الخالصة، ويطووا عليه نفوسهم حتى يصبح مع الزمن في مقام العقائد الراسخة التي يحتاج تغييرها إلى جهد هائل من المربين، وإلى زمن طويل ومثابرة على التكرار لإقناع الفتى أو الفتاة بغير ما أقنع به نفسه!

ولم يكن ذلك في الأفكار والأسئلة المعرفية فحسب، لكنه كان كذلك فيما يهمل الآباء والأمهات تصويبه من كلمات وحروف يعوجُّ بنطقها لسان الصغار فيثير اعوجاجه ضحك الكبار، أو سخريتهم، أو غضبهم، لكنهم لا يبذلون ما يجب عليهم نحو تقويمه لينطق الكلمة أو الحرف النطق الصحيح. رأيت فتاة ناضجة ـ هي الآن أم صالحة ـ تصرُّ على نطق حرف (غين) بدلاً من حرف (الخاء) من كلمة (خُسر) في سورة (العصر) فتقول (غُسر)!! فحاولت إصلاح نطقها للكلمة القرآنية، وهي في كل مرة تنطقها كما تعودت. سألت أباها عن سرِّ ذلك فأجابني ـ وهو شبه سعيد بذكريات طفولة ابنته ـ أنها هكذا سمعتها ممن كانت تعلمها، وأن أمها حين حاولت إصلاح نطقها كان هو يستعيدها النطق الخاطئ، ويضحك عند سماعه. والأم تغاضبه وتنهر البنت لما تفعله، وهو يستعيدها فعله ويهتز من الضحك لسماعه!

أدركت آنئذ أن البنت كانت ضحية هذا التناقض في سلوك الأبوين. ولم تكن الأم ـ وحدها ـ قادرة على إقناعها بأنها التقطت الحرف من معلمتها التقاطًا خاطئًا، وكان الأب المحب للضحك عونًا لابنته على التمسك بما أخطأت أذنها التقاطه من نطق المعلمة. وعندما استطعتُ، في نهاية الأمر، أن أعلِّم الفتاة نطق

الكلمة نطقًا صحيحًا رأيتها تتنفس الصعداء، وكأنها تخلصت من هم ثقيل كان يؤودها حمله، وقالت لي فيما يشبه الإفضاء بسر عظيم إنها كانت تظن المكتوب في المصحف خطأً إملائيًّا، وكانت تظن أن أمها ـ لأن دراستها كانت في مجال العلم التطبيقي ـ لم تفطن إليه وكانت موقنة أن أباها لم يكن يضحك منها وإنما كان يضحك من محاولات الأم نقل النطق الخاطئ إليها بدلاً من إصلاح كتابة مصحفها!!

* * * * *

بعد سنين مررت في بيتي بتجربة مماثلة استفدت فيها من تجربة تلك الفتاة.

عاد أحد الأبناء إلى المنزل ذات يوم، وراجعت معه في سويعة بعد الغداء ما دَرَسَهُ فذكر لي بعض آيات القرآن الكريم، فطلبت منه قراءتها فأخطأ في نطق بعض حروفها. كانت تملأ ذاكرتي ساعتها قصة فتاة (الغُسر)، فطلبت منه كتابه المدرسي فوجدت الآيات مكتوبة كتابة صحيحة، وسألته هل ينطقها كما نطقها المدرس في الفصل، فأجاب بنعم. فصححت له نطقه، وصحبته صباح اليوم التالي إلى المدرسة، ولقيت معه مدرسه، ثم صرفته قائلاً له: إن بيني وبين أستاذك حديثًا لا أحب لك سماعه.

سألت الأستاذ أن يقرأ لي الآيات التي درَّسها للأولاد بالأمس. فقرأ كما قرأ ابني، قراءةً خاطئة(!) عندئذ بينت له وجه القراءة الصحيحة، ورجوته أن يعيد القراءة للأولاد بها لأن هذا حق القرآن وحق تلامذته عليه. وكم كانت فرحتي عندما عاد ابني في ذلك اليوم

إلى البيت ليخبرني أن الأستاذ فلان رجل على شجاعة أدبية عظيمة. وأنه قال لهم في الفصل إنَّ القراءة التي سمعوها منه لم تكن صوابًا، وإن القراءة الصحيحة هي كذا؛ وإن الإنسان يجب ألا يأنف من الاعتراف بخطئه لأن الكِبْر نفسه خطيئة لا تليق بمن يحترم نفسه(!).

وكان هذا الموقف درسًا للابن في جوانب كثيرة، وهو لا يزال يذكره ويثني على قوة شخصية معلمه وصدقه مع نفسه ومع طلابه.

وكان الموقف نفسه فرصة تأكدت فيها من ضرورة إصلاح الخطأ في أول وقوعه، وأن يؤخذ الأمر بما يستحقه من الجد والاهتمام لئلا تبقى نفس الصغير أو الصغيرة مطوية على الباطل، أو يبقى لسانه معوجًا لا يستقيم وكلا الأمرين عيب يصعب إصلاحه في الكِبَرِ بقدر ما يسهل في الصغر.

* * * * *

وفي بعض سنين العمل الجامعي، في الرياض، كان يوم الخميس إجازة أسبوعية فجعلنا أمسيات الخميس من كل أسبوع لقراءة السيرة النبوية، وأضفنا إليها قصصًا جميلة مؤثرة كان حسن العشماوي ـ رحمه الله ـ قد كتبها لأولاده، في فترة اختفائه في صعيد مصر تجنبًا للاعتقال والسجن بعد محنة الإخوان المسلمين مع جمال عبد الناصر سنة 1954 وسمَّاها (سوق الخميس)!!

وكان يشارك بناتي في هذه الجلسات الأسبوعية حفيدان لحسن العشماوي[1]، فكان ذلك يضفي نكهة خاصة على الجلسة

(1) هما آمال وحسن ابنا الأخ العزيز محمد الفاتح مدني والأخت العزيزة فاطمة حسن العشماوي.

ويكسوها بصبغة عائلية جميلة تكتسبها من الشعور باستمرار العطاء وبحب الجد ومكانته، عند الكبار، حبًّا ومكانة ينتقلان تلقائيًّا إلى الصغار.

إن هذه الجلسات المتنوعة، وما أنشأته من علاقة ودودة بيني وبين بناتي وأولادي، وبيني وبين حفيديْ حسن العشماوي هي اليوم مصدر علاقة أخرى ودودة، من نوع جديد، تتكون بيني وبينهم بعد أن جاوزوا سن الطفولة وأصبحوا آباء وأمهات، يحملون مسؤوليات أنفسهم في العمل والسعي في الحياة، ويختارون لأنفسهم بأنفسهم ما يحبون وما يكرهون. العلاقة الجديدة لحمتها وسداها مشاعر ثقة ومحبة أنشأتها سنون الطفولة والعلاقات بيني وبين كل واحد منهم على امتدادها. وهي علاقات تنمو اختيارًا منهم، ورضًى وسرورًا مني، بعد أن لم يعد لي عليهم إلا النصيحة إن طلبوها!

أعلم أن كثيرًا من الآباء والأمهات يفرطون ـ بسبب مشاغلهم الضاغطة على الأوقات ـ في حقوق الأبناء في هذا النوع من الصلة، الثقافية والتربوية، التي لا تقوم على الأمر والنهي والخوف والرجاء، وإنما تقوم على نقل الخبرة، وصقل الموهبة، وإتاحة الفرص المتوالية للتجربة.

وأكتب هذا لعل بعضهم يستشعر خطورة هذا التفريط، فيحاول تعويضه، ولعل الآباء والأمهات المحتملين أن يخططوا من الآن أوقاتهم بحيث يكون لأولادهم وبناتهم منها نصيب.

إن محبة البنات والأولاد ثمرة نزرع بذرتها ونحن صغار قادرون معافون، وهم في أشد الحاجة إلينا. نزرعها بالعناية بهم، وإنشاء الصداقة الواثقة معهم، والاهتمام بأمرهم كله: ظاهره وباطنه، اهتمامًا جادًّا صادقًا يقنعهم بما نقول، ويحببهم فيما نفعل. ثم نحصد نحن ثمرة هذا الزرع ونحن شيوخ على أبواب الضعف والهرم. ومهما استغنينا ماديًّا بفضل الله ونعمته، فنحن في حاجة معنوية حقيقية إلى الشعور الجميل الذي تمنحه هذه المحبة الصادقة، وما أجمله حين تعبر عنه هدايا البنات والأبناء الرمزية.

أو أسئلتهم الهاتفية التي تأتيني، عبر البحار، من المغتربين منهم.

أو أشواقهم ـ ولو كانوا في المدينة نفسها ـ حين يعبرون عنها بمهاتفة في أثناء العمل.

أو برسالة تصلني على هذا الاختراع العجيب: الهاتف الجوَّال!

إن ذلك النوع من التواصل هو زاد للآباء والأمهات لا يقل ضرورة وأهمية وأثرًا عن الصلة التي صنعها الآباء والأمهات مع الأبناء والبنات في طفولتهم وشبابهم.

(2)

نصيحة صديق

حدثني صديقي العزيز[1] بالهاتف من الولايات المتحدة الأمريكية، التي كان يزور فيها ابنه الأكبر، وقال: إنه سرَّه أن يقرأ مقالتي: (هدية ابنتي). ونصحني أن أستكمل سلسلة من الفصول في العلاقة بين الآباء والأمهات من ناحية وبين الأبناء والبنات من الناحية الأخرى.

قال صديقي العزيز: إن الكتابة في هذا الموضوع أجدى من الكتابة السياسية وأنفع، وأثرها في الناس أبقى، وهي وسيلة يتأمل المرء بها كيف صنع، وكيف كانت ثمرة صنعه. فيحمد الله إن وجد خيرًا ويستزيده منه، ويعدِّل من مسيرته، ويصوب توجه خطوه، إن وجد غير ذلك.

وقال: إن القراء يصنعون ذلك أيضًا، فهو نفسه حين يقرأ ما يجده طيبًا وحسنًا يقيس به حاله فينتفع بما فيه من خير أو يجتنب عكسه وضده ونقيضه من الشر!!

* * * * *

(1) بل هو الأخ الحبيب الدكتور محمد بن أحمد الرشيد، لم أذكر في الطبعتين السابقتين اسمه لأنه كان وزير التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية. أما وقد تحرر من قيد الوظيفة، فإنني أذكر صداقة عمرها أكثر من ثلاث وثلاثين سنة، لم أر منه فيها، ولم أسمع، ولم أشاهد، إلا خيرًا ونبلاً ورقيًا ووفاءً. وهو نجديٌّ فخور بأصول عاداته وتقاليده، لكنه منفتح العقل والقلب على حسنات الآخرين وتجاربهم النافعة. وقد عافاه الله من آفة التعصب التي أصابت كثيرين من أقرانه. وأنا أدعو الله أن ينفع به وأن يكتب له صالح بلائه في خدمة دينه ووطنه وأبناء أمته.

والحق أن الكتابة عن التجربة الشخصية من أصدق ما يقدمه الكاتب إلى القارئ. والمتعة التي يجدها القارئ حين تختلط ـ في حديث التجارب الشخصية ـ حقائق الحياة بحكمة المجرب، بنتائج الواقع، بمفارقات المواقف والأحوال، متعة يندر أن تدانيها متعة أخرى.

وإذا كان كثير من التجارب الشخصية يعد (خاصًّا) لا يجوز أن يُكتب ويُنشر على الناس، فإن كثيرًا منها، على عكس ذلك، يجب أن يذاع ويعرَّف به؛ لأن مئات الصفحات من النظريات والتحليلات الفلسفية لا تغني غناء تجربة حية حقيقية يتعلم الناس منها، وتذهب مثلاً يتذكرونه ويقلدونه أو يقتدون به.

أذكر ـ دائمًا ـ ذلك الشاب الذي يُروى أنه جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: إنه يريد الدخول في الإسلام لكنه تعوَّد خصالاً من السوء لا يستطيع أن يدعها جميعًا.

وطلب من رسول الله ﷺ أن يأمره بترك خصلة واحدة من هذه الخصال، وأن يقبل منه بقاءه على سائرها مع إسلامه! [وأسأل ـ دائمًا ـ قبل أن أستكمل الرواية: ماذا يقول علماء عصرنا لو جاءهم مثل هذا الشاب؟!].

فقال رسول الله ﷺ لذلك الشاب: «دع الكَذِبَ»! قال الشاب في نفسه: ما أيسر هذا ! ثم خرج من عند الرسول ﷺ.. فأراد أن يصنع بعض ما اعتاده من المحرمات فتذكر أنه وعد النبي ﷺ بعدم الكذب، وأنه إن أتاه فسأله سيخبره بما ارتكب، ورأى في ذلك فضيحة له بين

الناس فاستحى فترك ما همَّ بفعله، وكذلك كان حاله مع خصلة ثانية من المنكرات، وثالثة... يُروى أنه قال: «**فلم ألبث أن تركتها كلها**»[1]!!

وأذكر ـ دائمًا ـ قصة ذلك الصحابي الجليل **معاوية بن الحكم السلمي** الذي تكلم كلامًا طويلاً في أثناء الصلاة وهو خلف النبي ﷺ. فلما انتهت الصلاة أقبل النبي ﷺ على المصلين خلفه وسألهم: «**من المتكلم؟!**»، قيل: «**هذا الأعرابي**»! وكان حوار طويل بينه وبين النبي ﷺ تناول أمورًا متصلة بالعقيدة والسلوك وبالصلاة وما يجوز فيها وما لا يجوز... لكن موضع الشاهد منه قول ذلك الصحابي عن النبي ﷺ: «**فبأبي هو وأمي: ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه. والله ما نهرني ولا كهرني**» (كهرني أي قهرني)[2].

وأذكر ـ دائمًا ـ تلك الرحمة العظيمة التي حملت النبي ﷺ على أن ينزل عن منبره، وهو يخطب يوم الجمعة، ليحمل سيدَي شباب أهل الجنة حسنًا وحسينًا، رضي الله عنهما، إذ دخلا المسجد يلبسان ثوبين طويلين يعثران فيهما. فقطع النبي ﷺ خطبته ونزل وحملهما ثم عاد بهما إلى المنبر وقال لأصحابه: «**نظرت إلى هذين الصبيين** (أي حفيديه) **يمشيان ويعثران** (في ثوبيهما) **فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**»[3]!!

---

(1) هذا الحديث مما حفظناه ـ في الصغر ـ عن الوعاظ من شيوخنا، لكنني لم أجده فيما بين يديَّ من كتب الحديث. لذلك أوردته بصيغة التمريض (يروى) المشعرة بضعفه، والله أعلم.

(2) رواه مسلم رقم (537)، وأبو داود رقم (930، 931) عن معاوية بن الحكم السلمي، ورواية أبي داود الثانية هي التي فيها عبارة (من المتكلم؟) وردُّ الصحابة: (هذا الأعرابي).

(3) رواه الترمذي برقم (3774)، والنسائي برقم (1585) كلاهما عن بريدة، ولفظ (في ثوبيهما) عن النسائي؛ والحديث عند أبي داود مختصرًا، عن بريدة أيضًا برقم (1109).

ونحن نرى خطباء هذا الزمان ووعاظه ينهون الناس ـ وقد يزجرونهم ـ عن أن يجعلوا معهم في صلاة الجمعة أبناءهم من الفتيان الصغار، فإذا حضروا نهوهم أن يوقفوهم معهم في الصفوف التي يقفون فيها، وربما أساء بعضهم القول وعنَّف الناس في غير موضع يجيز الإساءة أو التعنيف.

والصغير قد يتملكه الخوف والفزع إن فرَّقت صفوف المصلين بينه وبين أبيه. وهو يشعر بالطمأنينة والسعادة بوقوفه إلى جواره، في الصف نفسه، عن يمينه ويساره رجال كبار يقلِّدهم ويقتدي بهم فيما يأتون من حركات الصلاة وسكناتها.

لذلك أرانا دائمًا أحوجَ ما نكونُ إلى دروس التربية النبوية نستذكرها ونستخرج منها العبرة المفيدة والحكمة النافعة، ونجعلها معينًا نرجع إليه كلما كانت بنا حاجة إلى القدوة، والأسوة، والتجربة الناجحة: أكملَ نجاحٍ وأعظَمَه.

إنني لا أنسى أبدًا أنني سألت أبي ـ رحمه الله ـ وقد كان لي نعم المربي والصديق والشيخ والمعلم، سألته: أين أذهب لأتعلم السلوك؟ (التربية على العلماء الزهاد الذين يسميهم الناس بالصوفية) فقال لي: لا تذهب إلى أحد. عليك بعلماء القرآن والسنة، منهم تتعلم كل ما تحتاجه في دنياك وينفعك في أخراك. ثم سكت برهة، ثم سألني: هل تعرف مربيًا أحسن من رسول الله ﷺ؟ فقلت: لا. قال: فعليك بسنته!

وقد حاولت أن أفعل؛ ولا أزال أحاول؛ وإن يكن عليَّ دين يجب أداؤه: فبعض هذا الأداء أن أعترف بأن المتعة التي وجدتها في هذا التعلُّم، والسعادة التي غمرتني وأنا أحيا ـ كلما استطعت ـ في رحاب السنة النبوية، لم تكن قطُّ أقل من المتعة والسعادة التي كانت تعتريني كلما شاهدت فضل الله عليَّ في توفيق البنات والبنين. ولعلني، لذلك، يجب أن أستجيب لنصيحة صديقي العزيز ـ من وراء البحار ـ فأبدأ ذاك الحديث من أوله!!

(3)

خسـارة لا تعـوَّض

تقوم بين الآباء والأمهات وبين الأبناء صور عجيبة من العلاقات الإنسانية. الابن بعض أبيه، وهو أول ما يدركه الأب ويراه من الدلائل على إمكان الخلود ـ غير المباشر ـ في هذه الحياة.

بعض الآباء، بعد أن تزول الفرحة الأولى بمولوده، يبدأ في التعامل مع الحقيقة الجديدة عليه: أن له ابنًا هو مسؤوليته في المقام الأول، وأن هذا الابن يصبح محور الحياة كلها:

فرحُهُ يُفْرِحُ الأبوين ومن حولهما؛ وبكاؤه يشغلُ البيتَ كله بحثًا عن طريقة لإسكاته وتطييب خاطره؛

إذا نام حانت لحظة الهدوء الغالية؛

وإذا استيقظ استحوذ على انتباه الجميع بكل حركة ونظرة وسكنة!!

وتمضي الأيام، أو الشهور الأولى، ومعظم الآباء لا يكادون يلقون بالاً إلى أثر علاقتهم بالأبناء ـ القادمين الجدد ـ على حياة هؤلاء الأبناء وتنشئتهم وتربيتهم ومستقبل شخصية كل منهم.

فإذا تفتح إدراك الصغير، وظهرت عليه بوادر استيعاب ما يقال له أمرًا ونهيًا، رأينا الصور العجيبة من العلاقات الإنسانية التي أشرت إليها بين الصغير وأبيه أو بالأحرى بينه وبين والديه.

بعض الآباء يريد أن يحقق في ولده ما لم يستطع أن يحققه في نفسه. وهو لا يستطيع بلوغ ذلك إلا بالسيطرة التامة على حياة

الابن، في الصغير من الأمور قبل الكبير، والتافه، من الأفعال والأقوال، قبل المهم منها.

فالابن لا يلعب إلا كما يحب الأب، ولا يرى إلا ما يسمح له برؤيته، ولا يتحدث إلا فيما أذن له بالحديث فيه، وهو لا يكاد يُرى حتى يتلقفه الأب آمرًا أو ناهيًا أو مؤنبًا أو معاقبًا، فالصلة بينهما كالصلة بين الشرطي والمشتبه فيه(!) يتبع الأوَّلُ الثاني منتهزًا كل فرصة لخطئه حتى يوقع به، ويخاف الثاني من الأول فيتلفت حول نفسه ووراءها عند كل خُطْوةٍ يخطوها أو كلمة يفوه بها. فيكثر خطؤه ويقل صوابه وتزداد صفحته سوءًا أو سوادًا، أو في الأقل تتراكم عليه الشبهات فتأخذه من كل جانب.

لعل الفارق الوحيد بين الصورتين أن ذلك الأب يريد لابنه ـ في واقع الأمر ـ خيرًا محضًا، وهو يظن الذي يفعله به منتهى البر لكي يضمن أن يصبح ـ يوم يكبر ـ على الصورة التي تمناها الأب لنفسه وعجز عن تحقيقها. أما الشرطي فلا يعنيه ما يصيب المشتبه فيه، خيرًا كان أم شرًّا، ولا يتمنى إلا وقوعه في قبضته يوم يرتكب جريمته لئلا يصبح الشرطي نفسه فريسة للوم الرؤساء أو عرضة لاستحقاق ما يوقعونه به من جزاء.

وكثير من هؤلاء الآباء يستمرون في التعامل مع أبنائهم وبناتهم على تلك الصورة العجيبة حياتهم كلَّها. ويكبر هؤلاء الأبناء ويصبحون رجالاً أو نساءً قادرين على التعامل في الدنيا كلها وحدهم، ولهم أعمال ينفردون بها، وصداقات لا يعلمها الآباء، ومصالح خاصة يحرصون عليها، ولكنهم في نظر الآباء يبقوْنَ قُصَّرًا

في حاجة أبدًا إلى من يقوم على شؤونهم ويأمرهم وينهاهم، وإلا ضلوا سواء السبيل!

ولا يشعر الآباء الذين يمارسون هذا النوع من السيطرة ـ المقصودة أو غير المقصودة ـ أنهم في الواقع يفقدون شيئًا فشيئًا علاقتهم الأبوية الفطرية بأبنائهم. فكثير من الأبناء يبدأ في إخفاء ما يظنه من خصوصياته عن أبيه أو أمه أو عنهما معًا. وقد يكون في بعض هذه الخصوصيات ما يؤدي بالولد إلى مفاسد لا يمكن إصلاح آثارها، ولو استدركت من أول الأمر لعولجت بيسر، أو بمشقة معقولة ومحتملة.

ثم مع التقدم في السن تبدأ الصلة بين الوالد وولده في الفتور والجمود، فالبيت مجرد فندق يأوي إليه الولد أو البنت بعد العودة من الجامعة أو العمل(!)

والطعام غالبًا يتناوله كل واحد من أفراد الأسرة وحده(!)

ويوم الإجازة هو دائمًا يوم فرار من البيت والأبوين، برحلة خارج المدينة أو بمواعيد بالغة الأهمية(!) يضربها الولد مع زملائه وأصدقائه.

وذلك كله ليس إلا هربًا من العودة إلى سيل الأوامر والنواهي التي لا يكف الآباء والأمهات عن إعطائها أو عن الانتقاد والتقريع بسبب عدم إطاعتهما فيما أمرا به أو نهيا عنه.

والبيوت التي يديرها أصحابها بهذه الصورة تتحول بعد سنين قليلة إلى بيوت صامتة. لا يكلم فيها أحد أحدًا، وأسعد اللحظات لسكانها هي التي لا يجدون فيها من يسألهم عندما يعودون إلى البيت: أين كنتم؟ أو يستوقفهم قبل مغادرته ليسألهم: إلى أين تذهبون؟

لقد حدثني شاب طيب ناجح في عمله، كثير العلاقات الاجتماعية، يحبه أصدقاؤه ويأنسون إليه، حدثني أنه لم يجر بينه وبين أبيه حديث شخصي منذ كان طالبًا في الثانوية العامة. قال لي: عزمت أن أدخل كلية غير التي كان يريدني أن أدخلها، بعد أن أرغمني على الالتحاق بالقسم العلمي وحرمني من دراسة اللغة والأدب والتاريخ(!) فلمَّا نَفَّذْتُ رغبتي غضب عليَّ أبي، وخاصمني سنة كاملة، حتى حين تفوقت في أول سنوات الدراسة لم يهنئني بنجاحي، وكان يحدِّث أمي أمامي أنني لن أفلح أبدًا لأنه غاضب عليَّ. ولم يطرأ على علاقتنا أي تحسن من يومها حتى الآن (بعد 12 عامًا على تخرجي) إلا أنه أصبح يرد تحيتي، وأحيانًا نادرة يبدأني بالتحية، ومن المؤلم أن أمي تتبعه شبرًا بشبر وذراعًا بذراع وأنا أحاول برهما بالدعاء لهما، أما العلاقة الإنسانية بيننا فأظنها لن تبعث من جديد.

أسوق هذا الحديث المؤلم ليعلم صديقي الفنان الكبير(*) الذي لم يكن راضيًا، أول الأمر، عن كتابتي في موضوع الآباء والأبناء أن

(★) هو الصديق العزيز، الفنان الوطني الملتزم، حمدي أحمد؛ هاتفني بعد نشر الفصلين السابقين يعاتبني أنني تركت التعليق على أحداث سياسية مهمة وانشغلت بابنتي وهديتها(!)
ثم كتب هو في «الأسبوع»، أيضًا، مقالاً هذا نصه:
«**العواطف النبيلة.. وهذا الزمان**: في أحايين كثيرة تهرب من بين ضلوعنا الأحاسيس الإنسانية الجميلة.. تغيب شمس العواطف النبيلة بداخلنا.. يتم هذا رغمًا عنا ودون أن ندري.
قرأت مقال مفكرنا الكبير الدكتور محمد سليم العوَّا، وفيه قص علينا قصة النموذج المقلد لحجر رشيد، الذي أهدته إليه ابنته، وكيف استقبل الهدية وكأنها حدث كبير في حياته، أو هي إحدى ماسات التاج البريطاني الأشهر.. أسهب أستاذنا في شرح أدق تفاصيل العواطف الإنسانية التي عاشها حينذاك، وكأنه يدعونا إلى تأمل ما أهملناه بداخلنا بفعل الحياة اليومية، وفي عصر قاس دهس فيه قطار المادية طفل العواطف الجميلة فينا.
قرأت ما كتب وأتبعته بمقاله الذي يليه، وكان مكملاً لذات الموضوع، ولا أنكر عليكم وليعذرني أستاذنا، أني ما أخذت موضوع المقالين بما ينبغي لهما، وإنما بشيء من برود =

الأمر مهم، وأنه يستدعي جهدًا عامًّا وخاصًّا معًا، وأنه جزء بالغ الأثر في مشروع البناء الوطني الذي لا يتم بالسياسة وحدها بل يبدأ بالتربية، وربما كان ينتهي بها.

= الفكر.. ولعل هذه اللحظات الجميلة عنده تكون قد صادفت أحدًا منا و لم يعرها هذا التأمل الرقيق الواعي، وبكلمات كأنها نسيج الدانتلا نسجها لنا الدكتور العوًّا برقة الأب المحب المفكر، حتى كان ذلك اليوم، الذي دعاني فيه الصديق الدكتور رجب إبراهيم، مدير مدارس الرضوى التي تدرس فيها حفيدتي بسنت، ذات الأعوام العشرة؛ لأشاهد الحفل السنوي للمدرسة.. ولما كنت غير متحمس لهذا الحفل، وراوغت صديقي بين الحضور وبين الاعتذار، فاجأني الدكتور رجب «ألا تحب أن ترى بسنت على المسرح وهي تمثل؟»، وكانت المفاجأة السحر التي لم أكن أنتظرها.. كم حلمت أن يرث عني أحد أبنائي هذه الموهبة.. كنت أتفرس في وجوههم وهم يقصون عليَّ قصة يومهم الدراسي، ولا أرى بين القسمات ما كنت أرجوه، أو لعله كان موجودًا وأنكره وأقصيه، لأن الصعيدي بداخلي يرفض أن تكون إحدى بناته ممثلة. أو لعلي ما كنت أريد لهن أن يعشقن فنًّا صعبًا، عانيت فيه وكابدت من أجوائه الكثير.. فن مرهق مؤرق، ونحن جميعًا لا نود لأبنائنا أن يعيشوا شقاء مهنتنا حتى وإن كان هو الشقاء الجميل.

كانوا يخفون عني أن بسنت ستشارك في حفل المدرسة، رغم أن الجدة أم محمود كانت تجهز ملابس الحفلة، وتعتني بشعرها وشرائطه، وأغلب الظن أنهم كانوا سيقرأون سطور الرفض على جبهتي لو أنهم حدثوني به..

لمست موهبة التمثيل عند محمود، وعمل معي صغيرًا في مسلسلين لكنه من تلقاء نفسه لم يحب أن يكمل التجربة، واتجه صغيرًا إلى دراسة القانون، وكنت دائمًا أوصيهم أن تكون مكتبتي الفنية لأكاديمية الفنون التي تخرجت فيها.

رفع الستار وكنت أجلس في الصفوف الأولى.. طلعت علينا سندريلا الحفيدة في ثيابها البالية، وكاد قلبي بدقاته المتلاحقة يقفز من بين الضلوع وما إن رأيت تعبيرات وجهها الجميل الصادق الحساس، حتى تذكرت كلمات أستاذنا الدكتور محمد سليم العوًّا وطفقت العواطف التي حكاها عن هدية ابنته له، وكأنها شريط سينمائي، تمر أمامي بإنسانيتها.. أحسست صدق عواطفه الجميلة التي خطها فوق السطور تهز كفي البارد المبلل بعرق الانفعالات.. حين وقعت الحفيدة على المسرح في حركة تمثيلية لدواعي الفن، قفزت من فوق مقعدي بلا إرادة مني وأنا أقول «اسم الله يا حبيبتي» وعاودت الجلوس على مقعدي، لكن بالتصوير البطيء وفي المخيلة صورة الدكتور سليم العوًّا وكأني أراه بجانبي، وهمست له: ما أحلى الرجوع إلى العواطف الإنسانية النبيلة في هذا الزمان»!!

(4)
صناعـةُ الصـداقـة

الصداقة بين الآباء والأبناء أحد المفاتيح الضرورية للحياة السعيدة في الأسرة، وللطمأنينة التي يستشعرها الأبناء في سعيهم في الحياة، وللثقة في النفس التي تستمد من ثقة الكبار واحترامهم للصغار؛ وهما معنيان لازمان بين كل صديقين، فلا صداقة حيث تنعدم الثقة أو حيث يختفي الاحترام.

والأبناء لا يستطيعون السعي إلى طلب صداقة الآباء؛ بل الأصل أنهم لا يدركون هذا المعنى. وكثيرون منهم لا يتصورون إمكان قيامه في العلاقة بينهم وبين آبائهم.

فالابن ينظر إلى أبيه - أو أبويه - بحكم الفطرة الإنسانية نظرة القادم من الصحراء المقفرة القاحلة إلى النهر الجاري أو البحر المائج، لا يدري ما فيه، ولا يصل به خياله إلى شيء من حقيقته، فأعظم ما رآه من الماء في الصحراء بئر يستقي منها بصعوبة ومشقة، أو تجمع لمياه المطر متواضع السعة هادئ الصفحة، أو عين شقها الرحمن صافية الماء محسوبة العطاء.

فإذا رأى النهر المتدفق كالشلال، أو البحر الذي موجه كالجبال، فأنّى له أن يتخيل ما في أيهما أو يتصور مبتدأه أو منتهاه؟!

كذلك يكون حال الابن مع أبيه وأمه، هما منذ الطفولة الأولى بالنسبة إليه كائنان ضخمان غريبان لا يعرف كيف أصبحا كما رآهما، ولا كيف كانا قبلها، ولا إلام يصيران. فإذا اطمأن إلى حبهما

وحنانهما أخذ في اكتشاف عوالمهما العجيبة بالسؤال حين يستطيعه، وبالنظر والتتبع الذكي الذي يدرك به ـ حتى قبل أن يقدر على النطق ـ ما يرضيهما وما يغضبهما.

ودور الأبوين في صنع الصداقة مع الأبناء يبدأ منذ البواكير الأولى لعلاقتهما مع الأبناء. فالنظرة الحانية لبنة في بناء هذه الصداقة، واللمسة المخففة للألم أو المشعرة بالشفقة لبنة في بنائها، والكلمة الرقيقة في موضعها، والتنبيه الحاسم حين يقتضيه الحال، لبنات فيه... ثم يأتي دور الصحبة التي يجب أن يطلبها الآباء، أو يرتبوا لها، بحيث تبدو حالة طبيعية غير مصنوعة تنشئ صلة مستمرة تنمو رويدًا رويدًا إلى أن تصبح صداقة حقيقية يطمئن فيها كل صديق إلى صاحبه ويثق به، ويخصه بما يكون بين الأصدقاء من نجوى، ويستشيره أو يشير عليه في صغير الأمور وكبيرها، ويعلم يقينًا أنه، حتى يوم يبدو قاسيًا، لا يريد له إلا الخير، ولا يرجو له إلا النجاح، ولا يتوقع منه إلا العمل الصالح النافع.

وفارق التجربة والخبرة والسن بين الآباء والأبناء يجعل الآباء دائمًا في موقع الصديق الأكبر، ويضع عليهم مسؤولية استمرار تلك الصداقة وتنميتها وتوثيق عراها وحمايتها من أنواء مشاعر الشباب وتقلبات أهوائهم.

والأب الذي يجعل ابنه موضع ثقته ـ حقًّا ـ ومستودع سره ومستشاره ـ على صغر سنه ـ يصنع من هذا الابن أبًا ناجحًا في المستقبل، ويضمن استمرار القيم الصالحة التي غرسها، والمبادئ الحسنة التي علَّمها لولده في الأجيال التالية لهما واللاحقة بهما.

وهو يضمن بهذا الصنيع أن يبادله ابنه ثقة بثقة، ومودة صادقة بمودته الصادقة. فإذا نزلت به نازلة فأبوه أول من يلجأ إليه في شأنها، وإذا استغلق عليه أمر طلب من أبيه النصح والرأي، وإذا حاول شياطين الإنس والجن الوسوسة إليه وإغواءه كان في توجيه أبيه إياه إلى طرق الهدى والرشاد ما ينجيه من تزيينهم الباطل وإلقائهم الشبهات وإغراقهم بالشهوات.

وأول ما يشعر الأبناء بالثقة بهم تكليفهم ببعض الأعمال، وترك إنجازها لهم، ولو ترتب على ذلك نوع من الخطأ، أو زيادة في التكلفة المادية نتيجة عدم الخبرة أو حسن النية، ثم سؤالهم عن رأيهم في بعض ما يريد الآباء صنعه، ولو كانوا على يقين من جهلهم به، فإن قول الولد (مش عارف) باب عظيم لتعليمه وتدريبه ولإنشاء القُربِ الإيجابي بينه وبين أبويه!

ولا يبلغ الآباء شيئًا جديرًا بالتقدير من صداقة الأبناء إلا إذا قدموا ـ بالصلة بين الأبوين ـ نموذجًا ومثالاً، فإن الذي يكذِّبُ فعلُه قَوْلَه لا يصل بهذا القول إلى شيء من غايته.

والصلة بين الأبوين على ما فيها من خصوصية بالغة فيها من الوضوح أمام الأبناء أضعاف ما يظن الآباء. فحديثهما معًا، ونظرة كل منهما إلى الآخر ـ ولو مر به عرضًا ـ ولهفة الحاضر منهما على الغائب، ولو كان في عمله، وطمأنينة كل منهما إلى صاحبه حين يراه، وحديثهما عن صغير الأمور وكبيرها معًا، والكلمة التي تشي بأن بينهما أمرًا يُسِرَّانه معًا عن أبنائهما، ودقائق الخلوة بينهما ـ التي يوقن الأبناء أنها كانت للإفضاء بهذا الأمر أو بحثه ـ ثم عودتهما وقد

قضي الأمر... كل ذلك يضرب للأبناء أعظم المثل وأكثره تأثيرًا في صنع علاقتهم بالآباء.

ومظاهر علاقة الصديقين بين الأب وابنه ـ أو الأم ـ تختلف من سن إلى سن، فهي في الطفولة تتبدى في الملاعبة والمداعبة ونحوهما.

وفي المراهقة تتبدى في الصبر على السخافات الكثيرة التي يرتكبها المراهق أو المراهقة؛

وفي سعة الصدر لمناقشة الأسئلة التي يظنها الآباء تافهة أو دالة على الحمق والغباوة؛

وفي تفنيد الأدلة التي يحسبها المراهقون قاطعة في صحة ما يظنون؛

وفي صرفهم بأذكى ما يستطاع عن سفاسف الأمور إلى معاليها؛

وفي وقايتهم، بالأسوة والقدوة وضرب المثل الصادق، أن يتخلقوا بأخلاق السوء؛ وفي عدم الاستهانة بالصغائر التي إذا تركوا يمارسونها تحولت مع الزمن إلى بوائق مهلكة من كبائر الآثام والمعاصي.

وهي بعد أن يبلغ الولد مبلغ الرجال ـ والبنت مبلغ النساء ـ صداقة نظيرين وعلاقة ندين، لا يضيع فيها احترام الصغير للكبير ولاحُنُوُّ الكبير على الصغير، لكن يتبدى فيها الاستقلال بالرأي، والحق في المخالفة، وعدم الضيق بهما؛ لأن كلاًّ ـ في النهاية والبدء ـ ميسر لما خلق له.

(5)

ليس هناك مستحيل

كثيرًا ما يغفل الأبناء عن حقائق الحياة التي يدركها الآباء بخبرتهم الطويلة ودُرْبتهم على التعامل مع المواقف المختلفة. ويستثير كثير من الأبناء حفائظ الآباء بمخالفتهم نصائحهم ومعارضتهم آراءهم وتصرفهم على نحو يراه الآباء ضارًا أو غير محقق لما يرونه لأبنائهم من صلاح.

والألفة بين الآباء والأبناء.

والثقة التي تبنى على مهل بحسن تصرف الكبار مع الصغار وبحسن تلقي الصغار لآراء الكبار.

والمودة التي تغلف بها النصيحة، مهما بدت قاسية.

والعاطفة التي لا يبخل الأب بإظهارها لولده، ولا يخجل من أن تعرف عنه بين الناس...

كل ذلك يقدم أدوية ناجعة لكثير من الأدواء التي تعصف بعلاقات الآباء بأبنائهم وتنشئ فجوة داخل البيت الواحد بين جيلين تربط بينهما أقوى الوشائج وأجملها.

وليس توجيه الحديث إلى الآباء والأمهات هنا حيفًا عليهم، ولا هو تحميل لهم بما لا يطيقون. بل هو تذكير لهم بأن مفتاح الأمور كلها في أيديهم وبأن التبعة في صلاحها أو فسادها تقع أول ما تقع عليهم، فليس الأبناء إلا حصاد ما زرعوا وثمرة ما غرسوا.

وقد يفاجأ الواحد منا بأن ولده ليس كما يحب، وأن سلوكه في بيته مع إخوته وعائلته على غير ما يود كل إنسان أن يكون سلوك أبنائه بعضهم مع بعض، أو سلوكهم مع أمهاتهم وآبائهم. وكثير منا يظن أن الإصلاح قد فات أوانه إذا كان الولد قد بلغ مبلغ الرجال أو البنت قد شبت عن الطوق وأصبحت قادرة على التصرف في شأن نفسها.

والحق أن فرصة الإصلاح وأوانه لا يفوتان أبدًا. لاسيما في العلاقات الإنسانية

وكل ما نظنه فسد يمكن إصلاحه.

وكل خلق قبيح يمكن تحسينه.

وكل مسلك شاذ يمكن تقويمه ورده إلى الجادة.

لا شك أن إعادة الشيء إلى أصله أعظم جهدًا من إنشائه أول مرة وتكوينه منذ البدء. لكنه ليس ثمة ما يستحق بذل العناية، وصرف الهمة، والجود بالطاقة النفسية والعصبية والفكرية، أكثر من البنات والأبناء.

بعض النفوس يكون قد نبت فيها ـ مع طول الإهمال ـ مثل الشوك والحسك الذي ينبت في الأرض الصحراوية المجدبة. وهي تحتاج إلى تطهيرها من هذه الأجسام الغريبة والنباتات الضارة. وبعض النفوس تبقى جرداء ليس فيها ما ينفع ويصلح وليس فيها ما يضر أو يعوق جهود الإصلاح.

وقليل من نفوس الأبناء والبنات يبقى ـ بعد أن يكبروا ـ على الفطرة السليمة والبراءة الأولى التي تمتعوا بها في طفولتهم.

والعمل مع هذا الصنف الأخير لا يحتاج إلى جهد كبير ولا يتطلب عناءً غير مقدور. بينما الصنفان الآخران يحتاجان إلى قدرة خاصة على مواجهة الصعاب وتحديها، وتتبع مواطن نشوء العقبات لتذليلها، أو تحسس المواضع الصالحة للإخصاب والإنبات، في النفوس الجرداء، للغرس فيها وابتغاء الثمر الصالح منها.

وليس شيء من ذلك صعبًا على الأب أو الأم إذا صدقت نيتهما، وتوجها إلى الابن أو البنت بما أودعه الله في كل منهما من عاطفة صادقة، فأضافاها إلى ما أكسبتهما الأيام من خبرة ناضجة، ووظفا الأمرين جميعًا في سبر أغوار نفس ولدهما ومعرفة مواطن التمرد فيها والنفور، ومواضع الرضا عنده والقبول، ووقفا بذلك على السبيل الذي يصلح به التعامل معه، وتقوم بسلوكه علاقة بينهما وبينه.

إن الوالدين هما أمهر الأطباء النفسيين قاطبة في التعامل مع الأبناء.

وقدراتهما غير محدودة بحد.

ونجاحهما ليس له مدى يقف عنده، إذا وظفا العاطفة الأبوية الفطرية توظيفًا صحيحًا، والخبرة المكتسبة في موضعها المناسب.

ونحن كثيرًا ما نوظف العاطفة ـ من حيث لا ندري ـ في إفساد البنات والأبناء. فينشأ الطفل على الخوف عليه مما لا يخيف، وعلى إعطائه كل ما يطلبه ولو كان طلبه حماقة مدمرة، وعلى التماس العذر له مهما قصَّر وأهمل وفرَّط في أداء ما عليه أن يؤديه، وعلى الإعجاب غير المحدود يظهره له أبواه عند كل مناسبة مهما كانت تافهة أو سخيفة، وعلى تيسير الأمور كلها له بتكليف من حوله من

الكبار بقضاء حاجاته ومعاونته في مواجهة أبسط المواقف بزعم أنه لا يقدر وحده على مواجهتها!

ثم نلوم أبناءنا: أنهم لا يُقدِّرون شقاءنا من أجلهم ونحن وضعناه أصلاً في غير موضعه؛

ونعتب عليهم أنهم تخلفوا عن أقرانهم ونحن صددناهم أصلاً عن العمل الجاد المثمر بمكافأتهم على التفاهة والسخافة والحماقة جميعًا؛ وبإعفائهم من بذل أي جهد، أو تحمل أية مشقة، مما يصنع من الشاب أو الفتى رجلاً ناضجًا.

وقد يكون تصحيح المسار بالعود من حيث ضلت أقدامنا ـ أو أفهامنا ـ الطريقَ صعبًا أو مستحيلاً. لكن الذي ليس بصعب أو مستحيل هو إصلاح حال حياة الابن أو البنت حيث استقر بهما أو بأيهما المقام؛

ودفعه إلى تعويض ما فات من الموضع الذي هو فيه اليوم؛

وتشجيعه على إدراك مكانه بين الناس بالجد يتخذه مركبًا؛

وبالعلم يستزيد منه أو يبدأ في طلبه فتسمو بتحصيله روحه وتزكو نفسه وينشط عقله؛

وبالعمل الشاق المنتج الذي يجعله لأولاده ـ عندما يرزق بهم ـ خيرًا مما كان أبواه له على الرغم من حسن قصدهما وسلامة نيتهما وطيب مرادهما.

(6)

لا تـدليـل ولا إهمـال..

التدليل يفسد البنات والأبناء إذ ينَشَّؤُون بسببه ليّنين مصابين بميوعة مرذولة: يفقدون القدرة على الاحتمال ويرون أي أمر لا يحبونه مصيبة عظيمة لا يقدرون على ردها ولا يستطيعون الصبر عليها. وهم ـ هؤلاء الأبناء المدللون ـ ليس لديهم معيار موضوعي للحب والكره.

فهم يعبرون بهاتين الكلمتين، عظيمتي الدلالة، عن رضاهم عن، أو سخطهم على، أنواع الطعام والشراب والألوان والملابس والأشياء والأشخاص دون تمييز!

وهم يرون ـ لكثرة ما دللوا في صغرهم ـ أن حبهم شيئًا أو شخصًا كفيل بتسويغ سلوكهم تجاهه، وأن كرههم شيئًا أو شخصًا كافٍ لكي يقبل منهم اجتنابه، ولا يقبلون من أحد، مهما تكن خبرته وتجربته، أن يدلهم على الخير فيما يكرهون، أو على الشر والضرر فيما يحبون. وهكذا يمضون في الحياة لا يتحملون مشقة ولا يلقون عنتًا، ولكنهم لا ينتجون شيئًا نافعًا ولا يتركون فيها أثرًا باقيًا؛ لأن هذين لا يحدثان إلا بالمعاناة والصبر وتحمل المشاق ومواجهة الصعوبات.

والقسوة أخت التدليل وقرينته في الإفساد! فالذين يُرَبَّون بالقسوة وحدها ـ ابتغاء إصلاحهم ـ يخرجون إلى الحياة فاقدي الثقة بأنفسهم، عابسة نفوسهم، يغضبون لأدنى سبب، وبلا سبب

أحيانًا. يعاملون الناس جميعًا بسوء الظن ويقولون إنه من أعظم الفِطَن! وهم لا ينقلون إلى من حولهم من الأبناء والأهل والأصدقاء وزملاء العمل أية عاطفة صادقة، ولا يملكون من معدن الحياة شيئًا يقرّبون به المبتعد أو يطيبون به خاطر المنفعل. وهم يردون السيئة بأسوأ منها، ونادرًا ما يجزون بالحسنة مَنْ أحسن إليهم، هذا إذا رأوا الإحسان، أو شعروا بوقوعه، أصلاً!

وكفى بهذه الأخلاق عوامل تدمير للعلاقات بين الناس، وقواطع لأواصر المودة والرحمة اللتين بهما قوام الأمم وسعادة الأسر.

وثالثة الأثافي في إفساد الأبناء هي إهمالهم وعدم الاكتراث بوجودهم أصلاً في الحياة! وقد يعتبر ذلك أمرًا عجيبًا؛ إذ الآباء والأمهات يهتمون بأبنائهم بحكم الفطرة، ولذلك لم تأت في التنزيل وصية مباشرة بالبر بالأبناء وإنما جاء فيه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان: 14][1]. ويقع الإهمال عادة نتيجة انشغال الأبوين أو أحدهما بما تقذف به الدنيا على الناس من همومها، ويقع أحيانًا نتيجة اهتمام أحد الأبوين بشأن نفسه وملذاتها ومتعها، أو بجمع المال والترقي الاجتماعي أو الوظيفي. وهو في الحالين يؤدي إلى النتيجة نفسها: ضياع الأبناء والبنات. ولذلك قال أمير الشعراء:

إن اليتيم هو الذي تلقى له
أمًّا تخلت أو أبًا مشغولاً!!

(1) لابن قيم الجوزية كلام في فهم قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ [الإسراء: 31] سوف تأتي الإشارة إليه في الفصل الأخير من هذا الكتاب. لكن الوصية فيه بالنشء التربوي، وبالبر بالأبناء، تستفاد تبعًا للنهي عن فعل الجاهلية ـ أعني قتل الأولاد خشية عدم القدرة على الإنفاق عليهم ـ الذي تحرمه هذه الآية الكريمة.

أعرف رجلا صالحًا كل همه أن يكون موضع رضاء رؤسائه في العمل ومحل احترام زملائه وثقتهم. وهو لا يدخل بيته إلا حاملاً معه هموم عمله، وأحيانًا يحمل معه أكوام أوراقه لينجز في البيت ما ضاق وقت العمل عنه! وهو لا يجد وقتًا ليحدث أبناءه أو يسمع منهم، ولا يقتنع برجاء زوجته المتكرر أن يجعل لهم نصيبًا من حياته. ورده الدائم على هذا الرجاء أنه مكلف بتوفير متطلبات حياتهم المادية، وقد ألحقهم بأحسن المدارس وأغلاها، واستجاب لطلبات المدرسين الخصوصيين... فماذا يراد منه بعد؟؟! وحين استشارتني الزوجة الفاضلة في شأن ابنتها التي شقت لنفسها طريقًا لا ترضاه الأم لابنتها ولا تجرؤ على مفاتحة الأب لئلا يصيبه مكروه بعد أن ضعفت صحته، فاقترحت عليها أن يشترك معها ابناها ـ وهما أكبر من أختهما ـ في علاج المشكلة، قالت لي: إنهما مثل أبيهما.. عدم اكتراث وقلة اهتمام بشأن الأسرة كلها. وإن غاية حديث أي منهما معها أن يطلب منها إصلاح شأن من شؤونه الخاصة في ملبسه أو مطعمه أو إبلاغ رسالة لمن يتصل به في غيبته عن البيت، وإن صلتهما بشقيقتهما صورة من صلة الأب بهم جميعًا.

علمت عندئذ أن جميع الأدواء تعدي، وأن بعضها تكون عدواه بطيئة لكنها تتمكن من النفس تمكنًا يصعب تداركه أو يستحيل علاجه. وقد حاولت جهدي مع الأب بعد ذلك، فلما تبين له ما هو فيه كان الأوان قد فات أو أوشك فواته، ولا أدري هل أصلحت محاولاته الجديدة ما أفسده إهماله القديم أم لا!

(7)

نحصد ما زرعنا

كان العقوق في جيل آبائنا وما قبله من الأجيال شيئًا شديد الندرة، وكان من يقع في شيء منه يظل معيّرًا به حياته كلها، وقد يفقد بسببه أصدقاءه، وتسوء سمعته سوءًا يلحق أبناءه من بعده، وقد يمتد أثره إلى من بعدهم.

أذكر أن أحد عظماء النفوس، الذين جاهدوا في سبيل هذا الوطن حياتهم كلها، كان قد تحالف سياسيًّا وتعاون فعليًّا في النضال ضد حكم الملكية وفساد الحاشية وتهافت الأحزاب السياسية، مع زعيم ـ لم يكن آنذاك قد بدأ حياته السياسية العلنية ـ ووثق به واطمأن إلى ما عقداه من عهود وما منحه له من وعود. فلما آلت مقاليد الجماهير، التي كان يحركها هذان المناضلان، إلى الثاني ـ الذي كان يعمل في السر مختفيًا عن البوليس السياسي وأجهزة السراي وعيون رجال الأحزاب ـ غدر بصاحبه غدرًا قبيحًا، ونال من أبيه وأخيه وأهله، بل من عدد كبير من أصدقائه.

وكان صاحبنا ـ العظيم النفس ـ طيبًا لا يعرف الغدر ولا يجزيه بمثله، فلما انكشفت الغمة عنه وآب إلى نفسه وقصَّ قصته على بعض أصفيائه سأله: هل كنت تعرف عنه عقوقه المشهور لأبيه؟ فأجاب بأنه رأى ذلك الرجل بنفسه يحرك أباه النائم على الأرض بقدمه ليتسع الطريق لزواره ليلاً. فقال صفيُّه: **أنت المخطئ وحدك إذن؛ لأنك وثقت بمن يعامل أباه هذه المعاملة أمامك! لو أنك تنبهت إلى أن العقوق**

لا يأتي بخير لتوقفت من فورك عن التعامل معه، ولأيقنت أن التغيير الذي ظننته ضروريًا في حكم الوطن وقوانينه لا يمكن أن يتم أبدًا بهذا التعاون مع ذلك الولد العاق لأبيه.

* * * * *

والوعيد على العقوق كثير في النصوص الدينية الإسلامية كثرة ظاهرة، والأمر ببر الوالدين صريح في القرآن متواتر المعنى في السنة النبوية.

لكن البر لا ينبت وحده في الأرض الجدبة، والعقوق ليس فطرة يولد الناس - أو بعضهم - وهي مغروسة فيهم. إنهما نتاج التربية التي يتلقاها الأبناء في صغرهم، وحصاد المعاني التي يغرسها فيهم تعامل الوالدين معهم. والعجيب أن الإفراط في التدليل المفسد يؤدي إلى النتيجة نفسها التي يأتي بها الإفراط في القسوة والمبالغة في الشدة. ولقد تأملت في هذا الأمر سنين عددًا، واستقر عندي - كما أسلفت - أن التدليل المفرط والقسوة البالغة شقيقان، يقتلان في نفس الطفل، الذي يبتلى بأحدهما، عواطفه الصادقة ويحولانه إلى إنسان: نفْسُهُ محور تفكيره وغاية مراده وأقصى ما يراه بصره.

الطفل المدلل يظن أن من حقه ألا يعنى أحد بغيره من خلق الله، وألا يعنى هو من باب أولى إلا بذاته. ولم لا؟ ألم ير أبويه - أو أكثرهما فيه تأثيرًا - يقدمانه على الناس جميعًا، ويقدمانه على نفسيهما، فلماذا لا يقدم هو نفسه على الكافة؟! ولماذا لا يجعلها محور هذا الكون كله؟! فإذا كبر الأبوان، أو أحدهما، واحتاجا إلى بره بهما وعونه لهما، فلماذا يحرم نفسه من حاجاته أو ملذاته أو شهواته ليفضل أحد

أبويه على نفسه؟ ولا يخطر بباله قطعًا أن يفعل ما فوق ذلك، بأن يتحمل مشقة، من أي نوع، يقتضيها أداء واجب البر بهما. وهكذا يجعلُ جزاءَ ما قدم له الأبوان من النعم عقوقًا لهما وإساءة وجحودًا ونكرانًا، بالفعل إن لم يجمع معه القول أيضًا(!)

والذي ربَّته القسوة البالغة والشدة غير الرحيمة لا هم له إلا أن يفلت من براثنهما بحياته. وكثيرًا ما سمعت فتيانًا وفتيات يقولون إن الأب القاسي، أو الأم العنيفة، كان على وشك الفتك بأحدهم وهو يعاقبه على ذنب، أو يؤدبه على خطأ، أو يحاول تقويم سلوكه ليبعد به عن تكرار معصية أو خطيئة!

ونحن نقرأ في بعض الأحيان أن أبًا تجرد من إنسانيته فقتل ولده أو ابنته لسبب من الأسباب التي تبدو لنا تافهة.

إن هؤلاء لا يبدأون برغبة في قتل أبنائهم قطعًا، وإنما هي القسوة التي مهما بدت عاقلة في أولها فإنها تتحول بالتكرار، وعدم الاستجابة من جانب الصغير، إلى شعور مجنون بالإخفاق في تربيته يقود إلى المزيد من القسوة لعلها تجدي، ويكون الفارق بين ما يتحمله الصغير وما لا يتحمله هو تلك اللحظة التي يقتله أبوه فيها.

ولكن الغالبية من الآباء والأمهات، المرضى بالقسوة في التربية، لا يصلون إلى هذه اللحظة الفتاكة، وأكثرهم يقف دونها بكثير. غير أن القَدْرَ الذي يمارسونه منها يكفي، وزيادة، ليجرد الصغير من أية عاطفة حقيقية نحو الآخرين. ولماذا تكون لديه مثل هذه العاطفة وقد تركه هؤلاء نهبًا لقسوة بالغة ولم يرحموه منها؟ ومن الذي يستحق عواطفه بعد أن ضن عليه أبواه بعاطفتهما؟ وسُقْ ما شئت من هذه الأسئلة، العوجاء أو العرجاء، تجد جوابها: أنَّ الذي يُنشَّأ في

هذا العنف والغضب كالذي ينشَّأ في اللين والرخاوة، يعودان حين يكبران عاقين لمن أراد بهما الخير في صغرهما وإن أخطأ سبيله.

أعرف شابًّا ناجحًا في حياته العملية، ولكل من أبويه مكان مرموق في المجتمع العلمي المصري، وقد صنعا ما يستطيعان، وفوق ما يستطيعان لتربيته هو وشقيقته بالطريقة الشائعة الآن بين المصريين: مدارسَ أجنبية، ونفقاتٍ فوق الحاجة، ومتعٍ متنوعة، ومَصَايفَ ومَشاتٍ تأكل الأخضر واليابس من دخل الأبوين.

فلما كبر الصغيران بدأت الأم تلاحظ أنها وزوجها ـ ربما لا شعوريًّا ـ يفضلان الولد نوعًا ما على شقيقته، ويستجيبان له ما لا يستجيبان لها. وحاولت الأم إصلاح الأمر قدر طاقتها، لكن الوقت كان قد فات وأصبح الابن مقتنعًا أنه سر الوجود وسبب السعادة وأنه لولاه ما كان لهذين الأبوين وحياتهما من معنى!

وبدأت طلباته ترهقهما ماديًّا ومعنويًّا، وهما يلبيانها بمشقة بالغة تجنبًا لغضبه وخوفًا ـ فيما زعمت لهما نفسهما ـ عليه! وانقلب السحر على الساحر، فإذا بالولد لا يقيم لهما ـ بعد كبرهما ـ وزنًا، ولا يعتني حتى برد السلام عليهما عندما يدخل البيت أو يدخله عليه أحدهما، وهو الآن يطالبهما بترك بيتهما الفاخر الذي ولد هو فيه ليستقل به وحده ويتزوج فيه الفتاة التي لا يليق أن تعيش معه في المسكن الذي تمكنه من الحصول عليه ظروفه المادية الشخصية.

إن هذين الأبوين اليوم في محنة يتفطر لها القلب ويأسى لها الوجدان ويحار فيها العقل، لكن الذي يعرف كيف رُبِّيَ هذا الولد يعرف لماذا يتصرف على هذا النحو من الجحود والعقوق.

(8)

مـن أيـن يـأتـي العقـوق؟!

كان الإمام جعفر الصادق يقول: «**من أحزن والديه فقد عقَّهما**»[1] وهذه الجملة الموجزة تحمل معنًى عظيمًا طالما غفل عنه الأبناء فوقعوا بسبب هذه الغفلة في ذنب العقوق، وهو من أكبر الذنوب، بل من الكبائر الموبقة التي تُوُعِّدَ مُرْتَكِبُها بالجزاء الشديد. وفي الحديث أن جبريل ـ عليه السلام ـ قال لرسول الله ﷺ: «**رغِمَ أَنْفُ امرئ أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة**» فقال رسول الله ﷺ: «آمين»[2].

وإدخال الحزن على قلب الوالدين أو أحدهما أمر لا يُقْدِمُ عليه من نشأ على البر بهما والطاعة لهما، وتعلَّم منذ نعومة أظفاره حبهما والحنو عليهما؛ لأن البر والطاعة والحب والحنو مشاعر تحول بين المرء وبين قسوة القلب، وتُبَغِّضُ إليه كتمان عواطفه، وتحميه من الغلظة والجمود والجفاء، وهذه كلها هي التي تسهل عليه ـ إن أصيب بها ـ أن يرى الحزن في عيني والديه فلا يأبه له، وأن يعرف أن تصرفًا ـ مهما كان تافهًا ـ يضايقهما فيقدم عليه غير مبالٍ بهذا الضيق.

وأول ما يصنع بالإنسان هذا الصنيع الشنيع هو تنشئته على عدم الاهتمام بأبويه، وعلى قلة الاكتراث برضاهما أو غضبهما. وهي

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ6 ص255 وبخاصة ص262 في ترجمة جعفر الصادق وهي الترجمة رقم 117.

(2) رواه مسلم عن أبي هريرة رقم (2551) بلفظ مختلف. اللفظ في المتن من رواية الترمذي رقم (3545). وأخرجه الحاكم عن كعب بن عجرة رقم (7414).

تنشئة لا تَقْصِدُ ذلك طبعًا، بل الأغلب أن تقصد الاهتمام به هو، ورعاية جانبه، والتلطف معه؛ لكنها تنقلب وبالاً عظيمًا حين توضع الوسائل ـ التي يظن الآباء أنها تحقق هذه المقاصد ـ في غير موضعها.

فأنت ترى كثيرًا من الآباء والأمهات يرغبون في ترك أبنائهم وبناتهم أحرارًا، لا تقيدهم الواجبات العائلية والمسؤوليات الاجتماعية، فإذا خرج الوالدان لزيارة الأهل والأقارب وأبى الطفل صحبتهما ـ لأن الزيارات مملة بالنسبة إليه ـ تركاه وما يشاء: إما مع إخوة أعمارهم متقاربة وكلهم أطفال، وإما مع خادمة أو مربية تغتنم فرصة خلوها من مراقبتهم لتهتم بنفسها وتعتني بشؤونها وتدع الطفل ـ في أحسن الأحوال ـ لاهيًا عابثًا، أو تهتم هي به اهتمامًا يفسده ويعوِّده عادات سوء لا يتخلص منها إلا بشق الأنفس!

وإذا زار البيت زائر فدعت الأم أو الأب أولادهما إلى الترحيب به والمشاركة في إكرامه تمنع بعض الأبناء متعللاً بالتعب، أو بالواجبات الدراسية، أو بثقل دم الضيف، أو بغير ذلك من الأعذار السخيفة! والأبوان يحرصان على رضا الابن فيتركانه وحاله، وقد يتشاكيان فيما بينهما حتى إذا ظهر الابن أمامهما كتما عنه ما يجدانه من غصة في نفسيهما بسبب تصرفاته غير اللائقة؛ رعاية لغضبه هو(!) وتجنبًا للإثقال عليه!

وإذا ضاقت بالوالدين ظروفهما تراهما حريصين على أن لا يشاركهما الأبناء مشاكلهما. لأن ذلك ـ في زعم الأبوين المرهف حسهما ـ يجعل الأبناء يعانون معاناة لا تناسب سنهم.

وإذا مرض الأب أو الأم فإن أحدهما يخفي حقيقة ذلك المرض عن أبنائهما حرصًا عليهم لئلا يقلقوا أو يخافوا(!)

وإذا تعرضت الأسرة لمحنة بسبب موقف لأحد الأبوين، في عمله أو نشاطه السياسي أو علاقاته بأصدقائه، فإن الأبناء يكونون آخر من يعلم بحقيقة الأمر ودلالاته ونتائجه وآثاره؛ لأن الأبوين العاطفين على الأولاد يريدان تجنيبهما كل عَنَتٍ وكل مشقة(!).

وهكذا ينشأ الابن غير متعلم كيف يعبأ بوالديه، وكيف يهتم لهمومهما، وكيف يشاركهما المرارة كما يشاركانه حلاوة عيشهما. بل إنه ينشأ غير مدرك أن في الحياة مرارات ومشقات ومنغصات وأسباب عنت لا تحصى ولا تعد، وليس ذلك إلا لأنه لم يتعرض في نشأته الأولى لشيء من ذلك، ولم يسمع به، ولم يتعلم كيف يجب عليه التصرف عند وقوعه.

ومثل هذا الابن إذا وجد أبويه فرحين: نسب هذا الفرح ـ دون أن يفكر ـ إلى نجاحه وفلاحه وذكائه وخفة دمه وقدرته على إسعاد من حوله(!).

وإذا رآهما ضائقين أو ضجرين أو مهمومين: نسب ذلك الى الفجوة بين الأجيال وإلى عدم قدرتهما على إحسان التصرف في الأمور العارضة والمشكلات الطارئة(!).

كان أحد كرام الآباء إذا أراد الشكاية من أولاده قال إنهم يظنونه قديرًا على كل شيء، ومؤهلاً للاستجابة لكل طلب منهم، ويعتبرون رفضه أو إبداء عدم قدرته دليلاً على كراهيته لهم! فقال له صديق كان يشكو إليه همه: اجمعهم حولك يومًا واشرح لهم بالتفصيل حقيقة

الأوضاع التي تضايقك واطلب منهم أن يخففوا عنك مطالبهم؛ لأنك ـ ببساطة ـ ليس في مقدورك تلبيتها، واسألهم أن تكون مشاركتهم لك بالعمل لا بالقول، وانقل إليهم إحساسك بثقل الحمل عليك، وكلفهم بالمعاونة عليه بأن يكفوا عنك أذاهم حين يطلبون ولا تستطيع!

وكان الأب الكريم مذهولاً من هذه النصيحة، لكنه كان يثق في صاحبه فجرَّبها. وآتت المكاشفة أُكُلَها، وأثمرت مشاعر ودٍّ جديدة في الأسرة كلها. ورأت الأم، التي كانت أكثر خوفًا من الأب، آثار ذلك فزادت من جرعة الصراحة بينها وبين البنات والأبناء؛ فتبدل حال الأسرة تبدلاً يكاد يكون تامًّا حتى إنك لا تحسبهم هم أنفسهم الذين كنت تراهم وتحادثهم!

إن تعليم الأولاد منذ الصغر، وفي الطفولة الأولى، أن للآباء مشاعر يجب المحافظة عليها، وأن لهم حقوقًا لابد أن تؤدى، وأن للعلاقات العائلية والاجتماعية ضرورات لا يجوز الإخلال بها، وأن للبيت مطالب إذا لم يقوموا بها اليوم فلن يفهموا قيمتها عندما تكون لهم بيوتهم الخاصة.. إن الحرص على ذلك كله، وما في معناه من صلة الرحم ورعاية الكبير ومعرفة حق الجار وإكرام الضيف وإنزال الناس منازلهم، يجعل الابن في النهاية حريصًا على بر والديه وإسعادهما، ويحميه من خطيئة العقوق التي يرتكبها بمجرد إحزانه لهما. والأبوان هما المسؤولان عن نجاة الأبناء من إثم العقوق، وعن كسبهم أجر البرِّ، بما يسلكانه معهم منذ يولدون إلى أن يستقلوا بشؤون أنفسهم.

(9)

التدريب العملي

كلما أتاح الأبوان لأبنائهما فرصًا أكثر للمرور في تجارب الحياة العملية، كان عُودُ الأبناء أسرع صلابة وأحسن إحكامًا عندما يواجهون بأنفسهم هذه الحياة دون رقيب من الأبوين ودون معين منهما.

ومن أجمل ما رأيت ـ في حياتي الشخصية ـ ما أثمرته تجربة تدريب البنات والأبناء على إدارة البيت، بشؤونه كافة، من عناية الكبار منهم بالصغار، ومن معونة الجميع للأم أو الأب فيما يقوم به أيهما من العمل المنزلي، ومن توزيع المسؤولية الأسرية كاملة عليهم في أثناء السفر سواء أكانوا مرافقين فيه لأبويهم أم كانوا باقين في بيتهم وسافر الأبوان وحدهما.

مررنا في بيتنا بهذه التجارب كلها وغيرها. وكان الفضل في ذلك يرجع إلى أم أولادي ـ رحمها الله ـ إذ حرصت منذ البدء على إشراك ابنتينا الكبريين في العمل المنزلي وصمدت أمام معارضة الجميع، من أسرتي وأسرتها، حتى إذا جاء الوقت الذي احتجنا فيه إلى المعونة الفعلية، في مواقف لا تتحمل التفريط، كانت ابنتانا جاهزتين لأداء الواجبات كلها دون تقصير ودون شعور بأنهما تقومان بعمل لم تؤهلا له.

لقد اضطرتنا أحوال صحية، ذات مرة، إلى سفر طويل لا يصحبنا الأولاد فيه، وكان البيت يحتاج إلى إصلاح وتجديد، وخمسةٌ من البنات والأولاد يحتاجون إلى رعاية وعناية، فاتفقنا

على تقسيم المسؤوليات: فكان على الكبرى أن تقوم بالإدارة اليومية والطهي والإشراف على انتظام الوجبات وما يتعلق بهذا الشأن من أمور.

وكان على الثانية أن تشرف على عمل المهندسين والعمال الذين يجددون البيت ويعيدون الطلاء ويغيرون بعض الأثاث ويعدِّلون من تنظيم بعض الغرف(!)

وكانت المسؤولية المالية كاملة من نصيب الابن التالي.

وكانت المسؤولية عن السيدة التي تساعد في الشؤون المنزلية، وعن دجاج كانت أمهم ـ رحمها الله ـ تربيه في حديقة البيت: تطعمه وتجمع بيضه وتراعي أحواله كلها، كانت تلك المسؤولية للابنة الثالثة.

وكان أصغر الأولاد مسؤولاً عن الزرع الذي في البيت يسقيه ويرعاه خلال أيام الصيف قاسية الحرارة!

وحين عدنا من سفرنا الطويل ذاك، وجدنا كل شيء على ما يرام. البيت تم تجديده؛

والصراعات الإدارية الصغيرة بين الأولاد أظهرت جوانب كانت خافية علينا في كلٍّ منهم؛

وتحَمُّلُ المسؤوليات المتباينة أدى إلى ظهور مواهب أو تكوُّن مهارات كنا لا نعلم بوجودها أصلاً.

وجلسنا مع أولادنا جلسات طويلة نستمع إلى التقارير التي كان كل منهم قد أعدها في نفسه أو أعدها مكتوبة ليعرضها علينا. واستمعنا إلى عجائب وغرائب، ورأينا وجهات النظر الصغيرة العنيدة، والمرنة، والموائمة بين طرفي النقيض لتبدو عادلة(!)

وبدا المكر العميق في العيون الصغيرة متحفزًا لمواجهة أية تهمة بالتقصير أو لاستغلال أي خطأ في التعبير!

وضحكنا ـ أنا وأمهم رحمها الله ـ كما لم نكن فعلنا منذ سنين، واستمتعنا بهؤلاء المديرين الصغار استمتاعًا لا أزال أجد صداه في نفسي كلما تذكرته حتى اليوم.

وكان من أجمل الأشياء أن ابننا المسؤول عن الشؤون المالية أعد كشف حساب ـ أحتفظ به حتى الآن ـ فيه المال الذي تركناه معه، وفيه بيان النفقات مفصلة، وجعل في آخره (ملحوظات) عن سبب الزيادة في النفقة على بعض البنود والنقص في بعضها الآخر. فكانت نفقات البقالة زائدة لأن: «أخواتي البنات يحببن الجبن والبسطرمة واللانشون» وكانت نفقات الفاكهة ناقصة: «لأنهن لا يأكلنها مع أنها مفيدة جدًّا لهن» !

وكانت الشكوى من الأخت الكبرى أنها اختارت أنواع الطعام التي تحبها هي ولم تستجب لطلبات أختيها فيما تفضلانه من أنواع الطعام، وأنها كانت تدلل الولدين وتقسو على البنتين!

وكانت ديكتاتورية البنت الصغرى محل تندر الجميع!

وكان استقلال البنت الوسطى بقرارات اختيار لون الفراش وألوان (السيراميك) ومواعيد العمل دون تشاور مع أخواتها، استنادًا على اتفاقها مع زوج خالتها وحده[1]، موضع استنكار من الأخت الكبرى التي أطلق عليها الباقون وصف (فيها أو أخفيها)!

(1) هو الأخ الحبيب اللواء محمود خليل، أحد الصالحين الأتقياء البررة، جزاه الله خيرًا.

وكان الصغير موضع رضا الجميع، فلم يتدخل فيما لا يعنيه، وكان يحاول الإصلاح بين المتخاصمين فإذا أخفق انزوى في مكان قصيٍّ حتى يأتوه هم ليخرجوه من عزلته؛ فتذوب بذلك الخصومة بينهم!

كان صيفًا مزعجًا جدًّا من حيث السبب الذى سافرنا من أجله والمعاناة التي مررنا بها فيه، ولكننا حين عدنا إلى بيتنا وجدنا عِوَضًا هائلاً في هذا الفريق الذي استطاع أن يصنع أشياء كثيرة، وأن يولِّد ثقة هائلة في نفس كل فرد من أفراده، وأن ينال إعجاب الأسرة التي توافد الكبار فيها يزورون هؤلاء الصغار المتروكين وحدهم فوجدوهم أهلاً للثقة، أكفاء لإدارة البيت، يؤدون حق الضيافة تلقائيًّا ويشعرون أنهم مسؤولون عن شأن مُهِمٍّ يجب أن يقوموا به بإتقان!

لذلك سعدت جدًّا حين هاتفني صديقي، الطبيب السياسي النقابي، الذي لم يكتف بدراسة الطبِّ وحده بل أضاف إليه دراسة القانون ثم الشريعة الإسلامية، هاتفني ليقول لي إنه سرَّته الإشارة، في فصل نَشَرَتْه بعض الصحف، إلى تدريب الأبناء وهم صغار على تحمل المسؤولية، وأن زوجته وهي ليست مع هذا الرأي لا تزال تعترض عليه وتجادل فيه، فأحببت أن أعينه بهذه القصة الحقيقية لتجربة واقعية طمأنتنا ـ وقتها ـ على أبنائنا وبناتنا وأسعدتنا بهم.

(10)

اقلب «القِدْرَة»...

تنطبع في أذهان الصغار صورة الحياة التي يرونها في بيوتهم انطباعًا لا يزول مهما طال الزمن. وأكثر الناس يحاكي، دون أن يشعر، ما رآه في بيته من تصرفات أبيه أو أمه، وقليل من الناس يفعل ذلك عن بصيرة وإدراك، ظنًّا منه أنه تعلم أحسن الوسائل في التعامل العائلي من أسرته، ووقف على أنجع السبل في علاج المشكلات، التي لا تخلو منها حياة أسرية، من والديه.

أعرف صديقة لزوجتي جاءتها تطلب نصيحة في بعض شأنها، فكان مما حكته من حديثها أنها وهي صغيرة كانت تعاني معاناة مريرة بسبب بعض تصرفات أمها معها، وأنها كان يجرحها أن تشعر بقلة ثقة في قدرتها على أن تُحْسِنَ القول أو تُجِيدَ العمل أو تستطيع مواجهة موقف ما، وكانت تتمنى لو تُركت في حالها تفعل ما يهديها إليه عقلها الصغير وتجربتها الغضة، وتتعلم من ذلك ما لا تتعلمه من مئات النصائح كل يوم.

قالت هذه الصديقة لزوجتي إنها فوجئت بنفسها، لما كبرت وأصبح لها بنات وأولاد، تفعل الذي كانت أمها تفعله معها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، وإنها على الرغم من حبها لابنتيها وثقتها الداخلية بهما لا تستطيع أن تدعهما تخوضان غمار أية تجربة دون أن تكون معهما خطوة بخطوة تنصح وتوجه وتنتقد وتلوم وتقف قليلاً لتسمع نفسها تتحدث بلسان أمها وصوتها وطريقة كلامها،

ولا تتحدث بلسان نفسها هي، ولا كما تحب أن تتكلم، ولا بنبرة الصوت الهادئة الحنون التي تتمنى ألا يسمع منها أبناؤها ولا بناتها سواها.

وقالت الصديقة نفسها لزوجتي إن حصادها من هذا الصنيع لا يسرها، وهي تحاول أن تعرف ماذا عليها أن تفعل لتتخلص من هذا التقليد اللاإرادي لما كانت تكرهه وتضيق به وتتمنى زواله.

وقد سألتها زوجتي عن النتيجة التي يحققها ما تفعله: هل يكون أداء البنتين أفضل في كل مرة من سابقتها؟ وهل تراهما تكتسبان مما تفعل معهما خبرة مفيدة لهما؟ وكان جوابها نفيًا(!) فابنتاها: إحداهما فقدت كل ثقة في نفسها وأصبحت، وهي على مشارف الثامنة عشرة، لا تفعل شيئًا صغيرًا ولا كبيرًا إلا بعد أن تسأل أمها. وهي تسألها قبل الفعل وفي أثنائه وبعده، وتتأكد بعد يوم أو يومين من أن الذي كان منها هو ما تراه الأم جديرًا بأن يكون! والثانية، وهي في الرابعة عشرة، تمردت ورفضت كل ما يقال لها، فإذا نُصِحَتْ بأمر صنعت ضده، وإذا نُهيتْ عن شيء أصرت على فعله، وكانت في أول الأمر تستخفي بما تريد وتتحايل لبلوغه ولكنها الآن ـ فيما تقول الأم ـ تجاهر بما عندها من رغبة أو فكرة، وتجادل عنها جدالاً شديدًا، وتصمم على رأيها ولو غضبت أمها وغضب أبوها.

وهذا الذي وصفته صديقة زوجتي هو النتيجة الطبيعية الملائمة لكل من شخصيتي الابنتين، فإحداهما مسالمة تحب أن تتوقى المشكلات وتجتنب رؤية الغضب وسماع آثاره من كلام أمها، فتبدأ بالسؤال، وتكرره، وتستوثق بعده، والأم بدأت تضيق بهذا السلوك

الذي يشعرها بضعف شخصية ابنتها وعدم قدرتها على اتخاذ أي قرار دون مراجعة الأم وتكرار المراجعة.

والثانية قوية الشكيمة تريد أن ترى نفسها مستقلة الوجود، وربما جعلها كذلك صنيع الأخت الكبرى، فأرادت ألا تكون مثلها، فقادها الغلو في تلك الرغبة إلى حال التمرد التي وصفتها أمها.

ويوم تستقل كل من هاتين البنتين بحياتهما، فإن الكبرى ستبقى عاجزة حيال زوجها غير قادرة على التصرف إلا باستئذانه والتأكد من رضاه في الصغيرة والكبيرة. وقد يعجب ذلك بعض الأزواج، ولكنه يكون عبئًا ثقيلاً على الزوج السويِّ الذي يريد الحياة شركة بين شخصين مسؤولين يتحمل كل منهما نصيبه في أعبائها وينال حظَّه من عائدها. وكثير من مثل هذه الابنة الكبرى يختلقن المواقف ويخترعن الأسئلة ليطمئنن من خلال المناقشة فيها إلى إرضاء من حولهن وإلى أنهن غير مرفوضات ولا منتقدات.

وستكون البنت الصغرى أكثر تمردًا على من حولها، من زوج وغيره، من تمردها اليوم على أبيها وأمها. وإذا بقيت مشاعرها كما هي؛ فإن صلتها بأسرتها الأصلية قد تقل جدًا أو تنعدم. ولن تجد وفاقًا في حياتها إلا إذا ساق حَظُّها إليها رجلاً نبيلاً قادرًا على احتواء هذا التمرد وتهذيب السلوك المترتب عليه، بحيث يعيد إليها ثقتها بمن حولها وثقتها بنفسها.

ولكن الأهم من حال البنتين: كل منهما مع من حولهما من الأنداد والشركاء في مسيرة الحياة، سيكون حالهما مع أولادهما وبناتهما، فهما لن تستطيعا أن تتخلصا مما تعلمتاه من أمهما

ـ إذا تخلصتا ـ إلا بشق الأنفس. والغالب أن تكون كل منهما، من حيث لا تدري، صورة مما كانت أمهما معهما.

ويا لبؤس أجيال تتوالى تربيتها على هذا النحو الذي لا ينبت إلا مرارة واكتئابًا.

والواقع أن محاكاة الرجال والنساء للآباء والأمهات لا يكون على هذا النحو الأعمى، أو الأصم، إلا لأنهم لم تُتَحْ لهم فرصة لرؤية نماذج أخرى يوثق بها، وتدعو إلى الاحترام بسَمْتِها ومسلكها فيتأثر بها الأبناء والبنات. وقد زاد هذا الأمر سوءًا ما أصبحت عليه البيوت من تقوقع أهل كل بيت على أنفسهم، ومن ضعف الروابط العائلية التي كانت تجعل النماذج المختلفة ـ ولو في الأسرة الواحدة ـ قوية الصلة بالأبناء والبنات، فيقلدون الجميل والحسن من خصال غير آبائهم وأمهاتهم، ويرون قبح السيئ منها فيجتنبونه ويحذرون من الوقوع فيه. ويختارون بين طرائق الآخرين وطرائق الآباء والأمهات؛ لئلا يكونوا نسخًا كربونية من صور سلوك لا يحبونها أو لم ينتفعوا بها في صغرهم.

وفرصة اللقاء بكبار غير الآباء يجب أن يوفرها الآباء ـ حتى في الغربة ـ لأبنائهم وبناتهم لأن الحرمان منها حرمان من فرص كثيرة لتقويم الشخصيات وصقلها يستفيد منها الأبناء ـ كما يقول المتنبي ـ «على قدر القرائح والعقول»!!

(11)
شـــيءٌ آخـــر

عدت من يوم عمل مرهق إلى البيت، وما إن أخذت مجلسي في مقعدي المفضل حتى جاءتني ابنتي «مريم» بكتاب صغير، على غلافه رسم مقعد وثير، يجلس عليه مخلوق غريب الشكل محتضنًا ما يبدو أنه ابن له. وكان عنوان الكتاب «شيء آخر»! طلبت مني مريم أن أقرأ الكتاب قبل أن أشرب قهوتي، فهو نص قصير لكنه مثير.. هكذا قالت!

وعلى مضض نَحَّيتُ فنجان القهوة وأمسكت بالكتاب وبدأت في قراءته، فلم أضعه إلا بعد أن انتهيت ـ في دقائق قليلة ـ من صفحاته كلها.

النص هو الفائز ـ في سنة نشره ـ بجائزة منظمة اليونسكو لأدب الأطفال والنشء في خدمة التسامح، وكاتبته إنجليزية تكتب للأطفال ورَاسمُه إنجليزي مولود في جنوب إفريقيا.. المؤلفة هي كاثرين كيف، والرسام هو كريس ريدل.

والكتاب يحكي قصة المخلوق المختلف الذي يرفضه الكافة لمجرد ملاحظتهم هذا الاختلاف(!) فيبقى في مراحل متوالية من حياته وحيدًا مكتئبًا غير مدرك سبب رفضهم له، إلى أن يزوره فجأة في بيته مخلوق آخر مختلف، لا يشبهه في شيء ولكنه لا يشبه الآخرين أيضًا. كان رد فعل «شيء آخر» في بداية الأمر هو رفض ذلك «الشيء الآخر» الذي لا يعرفه، وأتى لزيارته بلا موعد(!).

حاول الضيف المختلف إقناع «شيء آخر» بأنهما مختلفان ولذلك يمكن أن يتصادقا، ولكنه لم يفلح، بل ازداد نفور «شيء آخر» من ضيفه حتى طلب منه مغادرة المنزل، فخرج الضيف وحيدًا ومكتئبًا !!

حين كان «شيء آخر» يغلق الباب على نفسه متنفسًا الصُّعداء عقب تخلصه من «الشيء الآخر» الذي حاول فرض صداقته عليه، وقع نظره على نفسه في المرآة، وتذكر فورًا كل شريط المواقف المحزنة التي تعرَّض لها لأنه «شيء آخر» فأسرع إلى الباب يفتحه وينادي على ضيفه أن: **«تعال.. تعال.. نحن شيئان مختلفان.. لكننا يمكن أن نعيش معًا.. وأن نصبح صديقين»**. وهكذا كان(!!).

* * * * *

إن هذه القصة الصغيرة، ورسومها المعبرة، هي قصة المأساة البشرية التي نحياها الآن: شعوبًا وجماعات ودولاً.

نحن نتباغض لأن كلاً مِنَّا ـ في نفسه أو ضمن جماعته ـ هو شيء آخر وقد تصل بنا البغضاء إلى الشجار، وبالدول ذات الجيوش إلى الحروب؛ لأن كلاً منها شيء آخر!

والجماعات الدينية التي يجب أن تستشعر وحدة الإيمان بالله ورسله وكتبه، مهما تفرقت بها سبل العمل والتربية والدعوة، هذه الجماعات تتعادى وتتنافر وترمي كل منها الأخرى بما بعضه حق وبعضه باطل لمجرد أن الطرفين يجدان ـ من ظاهر النظر ـ أن كلاً منهما شيء آخر!

وصراع الحضارات، الذي تخيله صامويل هنتنجتون، سببه هو كون كل حضارة تستشعر أنها شيء آخر. وأن الحضارة الغالبة اليوم اقتصاديًّا وعسكريًّا وتقنيًّا، الحضارة الأمريكية، لا تريد أن يكون معها شيء آخر في الدنيا، ولا تريد أن يعلن المختلف عنها ـ لا مَعَها! ـ عن اختلافه، ولو كان هو أوروبا التي صنع المطرودون والمغامرون من أبنائها أمريكا نفسها.

إنهم لم يحتملوا اختلاف الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصليين فأبادوهم؛ وهم اليوم يحاولون تكرار التجربة بطرق شتى في أنحاء عديدة من العالم.

فإذا كانت الإبادة المادية ـ بالقتل المباشر ـ غير ممكنة للجميع فليكن تغيير العادات، وتبديل الثقافات، والتنكر للتاريخ والتخلص من كل أثر حضاري لا يعجب الأمريكيين هي سُبُلَ الإبادة المعنوية.

ونظرية نهاية التاريخ، التي اخترعها فرانسيس فوكويوما، حاصلها أنه لن يبقى مهيمنًا على الأرض إلا النظام الرأسمالي بحضارته المادية الطاغية؛ لأن هذا النظام في صورته الأمريكية المتوحشة لا يتحمل أن يكون إلى جواره شيء آخر.

وفي حياتنا السياسية العربية تتخاصم دول الجوار، ويتقاتل أبناء العمومة، ويقاطع بعض الإخوة إخوانهم لأن هناك من يزين لكل منهم أنه شيء آخر.

وطالما آذى سمعي قول صديق أو زميل، يصف أسرته أو قبيلته أو شعبه أو دولته، بقوله «نحن غير»! وهو لا يدرك، أو لا يستطيع أن يلاحظ، أننا كلنا في الهم شرق !!

* * * * *

إن الذي يجري في العراق، وفي فلسطين، وفي الصومال، وفي السودان، والذي جرى ويجري في أفغانستان[1]، والذي تطالب به الولايات المتحدة الدول العربية والإسلامية، التي أسمتها (الشرق الأوسط الكبير أو الواسع) ليس إلا إبادة منظمة مطلوبًا منا أن نقوم بها لأنفسنا بأنفسنا! وليس لذلك من سبب سوى أننا ـ أهل ذلك الشرق الأوسط الكبير ـ بالنسبة للأمريكيين: شيء آخر.

وتجربتنا العربية والإسلامية أن (الأشياء الأخرى) من البشر والأديان والثقافات واللغات والحضارات تعيش معًا، وتتعاون فيخرج من كل منها أحسن ما فيها.

وهكذا صنعنا حضارة الإسلام في المشرق على يد دولة الخلفاء الراشدين ثم الدولتين الأموية والعباسية، وفي المغرب على يد دول الإسلام الأندلسية، وفي شرق آسيا ووسطها وجنوبها، وفي شرق إفريقيا وغربها ووسطها وشمالها على يد عشرات، بل مئات، الحكومات الإسلامية التي تراوحت بين الدولة الإمبراطورية ودولة المدينة الواحدة، لكنها اتفقت على الإيمان النظري والعملي بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

* * * * *

(1) كتبت هذا ـ أصلاً ـ في سنة 2004م. ولا يزال الحال على ما هو عليه، بل لعله أسوأ، ونحن في وسط سنة 2008م. فلله الأمر من قبل ومن بعد. ثم جرى على أهلنا في غزة من العدوان الصهيوني والإبادة المتعمدة (ديسمبر 2008 – يناير 2009) ما تعجز الأقلام عن وصفه، ووقف العرب عاجزين عن الدفع عن إخوانهم. ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده!

في بيتنا كنا خمسة من البنين والبنات، وكان يظلنا ظلان مختلفان لأبينا وأمنا ـ رحمهما الله تعالى ـ وكان كل من الأبناء والبنات شيئًا مختلفًا عن الآخرين، وكان ظل أبينا سابغًا ودائمًا حتى كنا نجد تحته حماية لا تتوقف من المشكلات الصغيرة والكبيرة التي تواجهنا في حياتنا؛ وتوجيهًا لا يكاد يخطئ ـ كما أراه اليوم ـ في كل موقف احتاج أحدنا فيه إلى النصح أو التوجيه.

وكان ظل أمِّنا رقيقًا وعابرًا، فكنا من خلاله نجد معاني الحرية والاستمتاع بالقدرة على اتخاذ القرار، ونسكن إليه عندما ترهقنا الوقائع أو المشاعر التي لا نجرؤ على البوح إلى أبينا بها، وكان الأبوان يعرفان أن كلاً منهما شيء آخر، وشجع كل منهما كل ولد وبنت على أن يبقى كما هو: شيئًا آخر. لكنهما استطاعا، بحكمة بالغة وحب عميق وإنسانية راقية وصبر على الشدائد متناهٍ، استطاعا أن يحولا هذه الأشياء الأخرى الخمسة إلى أسرة متحابة، أصبحت الآن عشيرة صغيرة متآلفة.

* * * * *

وعندما تزوجت أم أولادي[1] ـ رحمها الله تعالى ـ كنا مختلفين اختلافًا غير قليل في أمور كثيرة. وقبل أن ننجب ابنتنا الأولى كنا قد لاحظنا كيف يعالج بعض من نحترمهم ونحبهم اختلافهم لئلا

(1) المرحومة الدكتورة أسمهان توفيق بكير. كانت من الصالحات القانتات العابدات الصابرات، أحسنت إلى أولادها وزوجها وأهلها إلى أن لقيت ربها في 17 من ذي الحجة 1414هـ = 1994/5/27م؛ فجزاها الله خير ما جزى امرأة مؤمنة عن طاعتها وحسن صنيعها.

ينطبع ذلك سلبيًّا على أولادهم. واتفقنا أن نوحد موقفنا من الأولاد، وفي التعامل معهم وأن نترك لكل منهم المجال الأرحب ـ قدر الإمكان ـ ليصنع شخصية نفسه ويختار سبيله في حياته. وعندما كبر الأولاد وأدركنا أن الخطة أوشكت أن تنجح كنا أسعد الناس بذلك.

وأنا كلما رأيت شأن أولادنا وبناتنا، واختلاف كل منهم عن الآخر، وكلما سمعت زوجتي الحالية[1] ـ جزاها الله عني وإياهم الخير كله ـ تقول إن كلاً منهم دولة مستقلة(!) أدعو لأمهم بالرحمة والرضوان فلولاها ما بلغوا من ذلك شيئًا ذا بالٍ.

فهل يستطيع الحكماء الباقون في عالمنا العربي أن يتعلموا الدرس من قصة اليونسكو، إن لم يتعلموه من ملايين الآباء والأمهات الذين كان منهم أمنا وأبونا، وكان منهم أبي، وجد أولادي توفيق بكير، وحسن العشماوي ـ رحمهم الله ـ وكان منهم كثيرون ممن تعلمنا منهم بالقدوة والأسوة أضعاف ما تعلمنا من غيرهم بالتلقي؟!

* * * * *

ذكرت بعض ذلك لابنتي مريم، وطلبت منها قهوة جديدة بدل التي فقدت حرارتها لانشغالي عنها... بشيء آخر!!

(1) هي أماني حسن العشماوي بنت أستاذي حسن العشماوي ـ رحمه الله ـ بها استمر البيت كما كان، واتصل المنهج التربوي بنجاح ولله الحمد والمنة.

(12)

ولا يـزالــون مختلفــين...

الاختلاف سنة من سنن الله في الكون والإنسان. وهي سنة مثيرة للتأمل المؤدي إلى إدراك المميزات والإحاطة بالقدرات التي اختصَّ الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات.

ونَظَرُ المرء إلى غيره من الخلق، لاسيما إلى غيره من الناس، نظرًا فيه احترام وتقدير، ونَظَرَ الموقن أنه لا فضل لأحد على أحد بلونه، ولا بأصله العرقي، ولا بلسانه الذي يعبر به عما في نفسه إبداءً أو إخفاءً، ولا بماله الذي رُزقه على غير حول منه ولا قوة، ذلك كله أثر من آثار التربية على قيم الأخوة الإنسانية التي كرر القرآن الكريم ذكرها في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، وكرر التنبيه إليها رسول الله ﷺ، في مثل قوله: «**الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب**»[1].

وتعويد البنات والأبناء التعاملَ مع غيرهم من الناس المختلفين عنهم، من أي وجه كان ذلك الاختلاف، على أساس ما ذكرت من

(1) أبو داود عن أبي هريرة رقم (5116)، والترمذي عن عبد الله بن عمر برقم (2608) من صحيح الترمذي للألباني، وأشار الألباني إلى شواهد كثيرة له في: بلوغ المرام رقم (312 ص290) وألفاظه متقاربة.

الاحترام، والتقدير، والمساواة؛ مهمة أساسية من مهمات الآباء والأمهات. وهي مهمة لا يكفي لأدائها القول وحده. بل إن المواقف العملية تؤثر أضعاف ما يؤثره تكرار القول مهما كثر.

يؤلمني ألمًا شديدًا سكوت الآباء عن طريقة الأبناء في التعامل مع من يقومون بالمساعدة في البيت من سائق أو حارس أو طاهٍ أو نحوهم. تجد الفتى، أو الفتاة، تعامل هؤلاء كما لو كانوا مخلوقين من طينة أدنى من طينتها، وتنظر إليهم حين تكلمهم من علٍ مما يجعل أحدهم يتمنى ألا يكلمه أو يكلمها بعد ذلك إلى يوم الدين!

وكثيرًا ما كنت أرى في البيوت الابن أو الابنة يطلب أحدهما كوب ماءٍ مثلاً من سيدة في عمر أمهما، أو من فتاة تقترب في عمرها من عمر أحدهما، والأبوان لا يشعران في هذا بما يستحق التوجيه أو تصويب السلوك.

وقد رأيت من فضلاء المربين من ينهر ابنه علانية عندما تصرف على هذا النحو، وكان من قوله له: ما الفرق بينكما؟ أنت جالس لا تفعل شيئًا وهي مشغولة بمساعدة أمك، ألا يكفي إلقاؤنا عليها بأعمال البيت حتى تضيف إلى ذلك سخافة طلب الماء منها. ثم أصبح هذا الفتى رجلاً وأبًا، وهو لا يمل من حكاية هذه القصة كلما رأى واقعة تناسبها أن يحكيها؛ وأصبح هو من أحسن الناس خلقًا مع من دونه، ومن أكثرهم برًّا بهم وشفقة عليهم. ولو لم يكتسب من هذا التوجيه الأبوي غير هذه الخصال لكفته.

ويتعود الابن أو البنت بمثل هذا التوجيه أن يقوم بشأن نفسه لا في صغير الأمور فحسب، بل وفي كبيرها أيضًا.

* * * * *

أعرف طبيبًا، مدرسًا في إحدى الجامعات، سافر إلى بلد أوروبي ليعمل في إحدى جامعاته لعدة شهور، فلما زرته بعد عودته كان أهم ما اشتكى منه في غربته أنه كان مطالبًا بأن يعد لنفسه الإفطار، وأن ينظف مطبخ شقته الصغيرة، وأن يخرج قمامتها كل يوم قبل السابعة صباحًا ليجمعها القائم بذلك في مساكن الجامعة التي سكنها. وكان شديد الضيق أنه لم يكن لديه من يصنع له القهوة والشاي في أثناء مذاكرته. وامتدح ـ صادقًا ـ واحدًا من طلابه كان يأتيه من مدينة أخرى ليعد له طعام الأسبوع ـ إفطاره ـ واشترى له جهاز التسخين وعلَّمَهُ كيف يستعمله. إن الذي جعل هذا الطبيب الكبير هكذا هو أن أهله لم يعودوه أن يخدم نفسه، ولا أن يشارك في خدمة أهله، وفاتهم أن رسول الله ﷺ كان في بيته «يكون في مهنة أهله»[1].

* * * * *

كثير من الأبناء والبنات يرفضون مجالسة الضيوف، أو يكتفون بالسلام البارد على الضيف أو الضيفة ثم ينسحبون من المكان إلى ملاذٍ آمن في غرفهم لا يختلطون فيه بأولئك «الغرباء» الطارئين على البيت، وكثير من الآباء والأمهات لا يناقشون أبناءَهم وبناتهم في هذا السلوك العجيب.

(1) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، رقم (676).

وأعرف آباء وأمهات تركوا الكلام مع أبنائهم وبناتهم، في هذا الأمر جملة، لضيقهم من تصرف الأبناء، أو تجنبًا لإثارة نقاش عقيم ـ في نظرهم ـ أو توقيًا لإغضاب الأبناء أو البنات (وهي حجة جديدة تتردد في مجتمعنا العربي كله، وتضع أمر الغضب والرضا في غير موضعه. فالأصل أن يطلب الأبناء رضا الآباء والأمهات. والعكس لا يصح!).

وقليل ممن تحدثت معهم، أو حدثوني، في هذا الأمر يرون العمل بالمثل العامي المصري: «اللي ما تربيهوش الأهالي تربيه الأيام والليالي»! أي يرون ترك الأبناء وشأنهم يأسًا من القدرة على الإصلاح ومن الأمل في التغيير.

وأول ما ينبغي الالتفات إليه هنا هو ما قد يكون سببًا نفسيًّا لذلك السلوك لدى الابن أو البنت.

فقد يكون أيهما خجولاً خجلاً مبالغًا فيه ـ قد يصل إلى حدِّ المرض ـ يحرمه القدرة على التواصل مع من لا يعرفهم معرفة كافية، ويمنعه من البدء ببناء صلات جديدة تتيح هذه المعرفة أو تقوِّيها. وهذا الخجل، المرضي، يقتضي المبادرة بتقصي أسبابه وعلاجها قبل أن يتحول إلى داء ملازم لصاحبه يقوده إلى الانطواء على ذاته والعزلة عن أقرانه، بما يصنعه هذان من آثار نفسية وسلوكية أخطر كثيرًا من مجرد العزوف عن مجالسة الضيوف.

وقد يكون للأبوين أو أحدهما اليد الطولى فيما يصنعه الأبناء، فالآباء الذين يستعذبون المزاح بالهزء بأبنائهم، والأمهات اللاتي يُدْمِنَّ انتقاد البنات من حيث شكلهن أو قوامهن أو زينتهن أو

طريقة إحداهن في تصفيف شعرها أو ألوان ملابسها...إلخ. ويستشهدن على صحة رأيهن برأي الضيفات من القريبات والصديقات. والآباء والأمهات الذين يرغمون الأبناء والبنات على الظهور بمظهر لا يناسب أعمارهم؛ ليبدو الولد رجلاً مكتمل الرجولة قبل الأوان، والبنت فتاة ناضجة وهي غير مهيئة لهذا المظهر وغير راغبة فيه؛ كل ذلك يحمل البنين والبنات على التهرب من ملاقاة الناس على النحو الذي يتمنى الآباء والأمهات أن يكون أبناؤهم عليه.

وهذا المسلك من الأبوين لا يجرؤ الأبناء - عادة - على انتقاده أو رفضه، وقليلاً ما يفضي الابن أو البنت إلى أحد الأبوين بما يحمله عليه الآخر مما لا يحب، فإذا تفهم الأب أو الأم موقف الولد أو البنت، وإذا تفاهم مع قرينه بحيث يحمله على الاقتناع بسوء عاقبة هذا القهر فيكُفُّهُ عن ولده، عولج الأمر كله بحكمة وحسن تصرف. أما إذا كان نصيب الولد أو البنت زجرًا ممن يشكو إليه من أبويه، وأمرًا بلزوم الجماعة وعدم شق عصا الطاعة(!)، فإن اليأس الذي سيداخل الابن لن يكون له شفاء قريب؛ وستتضاعف المحنة عليه، ويفقد قدرته على التفاهم مع أبويه جميعًا، وقد يفقد ثقته بهما معًا بعد أن يفقد ثقته بنفسه.

وهكذا يُنتج موقف الأبوين عيبًا شخصيًّا قد يلازم الابن طوال حياته، أهون صوره هي عدم مخالطة الناس، وعدم أداء الواجب العائلي نحو ضيوف البيت. وهي صورة تتفاقم حتى تصبح عدم

أداءٍ لحقوق ذوي الأرحام من الصلة الواجبة والبر المستحق، أو عدم قدرة على التعامل مع الآخرين كافة، واحترامهم، كما ينبغي للعاقل المتأمل في خلق الله أن يصنع.

* * * * *

عندما مر ببعض أبنائنا بوادر أخافتني من الوقوع في مثل هذه الحال، أخذت أكرر أمامه في كل مناسبة قول الرسول ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[1]. وأروي قصصًا، صادقة ومخترعة، عن تصرفات أبناء الأصدقاء في إكرام ضيوف آبائهم، وأدعو الأبناء والبنات ـ كل فيما يصلح له ـ لمجالسة ضيوفي وخدمتهم، فلم يحتج الأمر إلا إلى زمن قصير جدًّا ليعود هذا الابن إلى ما أحببنا له من حسن استقبال الضيف، والقيام على خدمته، وأداء حقه.

وهو اليوم بارٌّ صادق البر، واصل لرحمه، ذاكر لواجباته في المناسبات كلها. وهذا من أسباب دوام النعم وتخفيف البلايا.

وحين كانت بعض بناتنا تكره ما يراد لها من مظهر وضعنا ـ أمها وأنا ـ الأمر في ميزان محبة الوالدين الموجبة لإرضائهما، ولم نضعه في ميزان الأوامر الصارمة واجبة التنفيذ... وإلا...!

وكان الطلب الذي لم تحبه ابنتنا رغبة لأحدنا وحده، فأخذ الآخر يخفف من شأن الموضوع كله، ويهوِّنُ على صاحبه أمره، وهو في الجانب الآخر يزين لابنتنا فعله... حتى مرت المسألة كلها بسلام، أو بأدنى ما يمكن إليه.

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري رقم (6163)، ومسلم رقم (47).

وأصبحت هذه البنت ـ بعدُ ـ من أكثر من أعرف تقديرًا لغيرها واحترامًا له وإدراكًا للأسباب التي قد تحمل الناس على تصرف لا يرضي الآخرين، وكلما رأيتها تلتمس الأعذار للناس تذكرت كيف تعلمت هذا الخلق الحسن، واستَعدْتُ معاناتنا وقتها، واستعذبت الجهد الذي بذل معها بسبب ما أراه اليوم في خلقها وسلوكها من آثاره وثماره.

فلو أن الآباء والأمهات تنبهوا لهذه المعاني جميعًا، ولم يلقوا باللوم أولاً وآخرًا على الأبناء والبنات وحدهم، ولم يتصوروا أن كل تصرف غير ملائم سببه سوء خلق فطري في الابن أو الابنة؛ وسَعَوا ما وَسِعَهُم السعي ـ بغير ضجر ولا ملل ـ للإصلاح من شأن البنين والبنات بإصلاح ما بينهم وبين الآباء والأمهات أولاً... لو أن ذلك أخذ سبيله إلى علاقات الطرفين، لعولجت عيوب صغيرة كثيرة قبل أن تكبر وتستفحل لأن المكلفين بعلاجها أهملوها أو لم ينتبهوا أصلاً إليها وإلى حاجتها إلى مواجهة تبدأ مع النفس قبل أن تنتقل إلى الغير.

(13)
حصائد الألسنة

يتحدث الآباء والأمهات أمام أبنائهم عن سلوك الأبناء وما يحبون وما يكرهون، وما يفعلون وما يدعون. وغالبًا ما يكون هذا الحديث مع أفراد من خارج الأسرة الصغيرة من مثل الخال والخالة والعم والعمة والصديق القريب ونحوهم. ويظن الأبوان أن الصغار لن ينتبهوا إلى ما يقال ولن يتأثروا به.

وكثيرًا ما يفوتنا ونحن نحكي عن أبنائنا أننا نزرع فيهم مشاعر لا يعرفونها أصلاً، أو ننسب إليهم صورًا من السلوك قد تكون حدثت مرة على وجه الفلتة، ولم يشعر الأبناء بوقوعها، فإذا بهم يتخذونها بعد ذلك عادة وديدنًا!

قد يكون الولد أو البنت فعل مرة، أو قال في مناسبة، أمرًا أو قولاً ثم نسيه ونسي المناسبة التي فعله أو قاله فيها. فيأتي الأبوان أو أحدهما فيذكر ذلك الفعل أو القول، ويكرره كأنه يقرره، ويجد الابن نفسه وقد نسب إليه شعور أو سلوك فلا يجد غضاضة في موالاة فعله بعد ذلك، والتعبير عنه، مادام الأبوان ـ أو أحدهما ـ يذكره راضيًا غير مستنكر، أو مقررًا غير ناصح ولا مذكِّر!

يقول الأب ـ أو الأم ـ فلان من الأولاد لا يحب اللون الأزرق، أو لا يناسبه اللون الرمادي، أو يستسخف لبس نعل في البيت، أو يكسل عن غسل أسنانه بعد كل طعام، أو لا يأتي إلى الصلاة إلا متأخرًا، أو يتسبب في تعطيل خروجنا من المنزل كلما أردنا الخروج

عائليًّا، أو لا يحب صحبتنا ويفضل البقاء في البيت وحده، أو لا يأكل الصنف الفلاني من الطعام أو الفاكهة... وأمثلة ذلك لا تحصى!

ويكون هذا الذي ينسب إلى الولد أو البنت قد وقع منه مرة، أو لم يقع منه أصلاً، وإنما حكاه حكاية عن غيره من أصدقائه أو غيرهم، فإذا سمعه مُكررًا مُقررًا اتخذه لنفسه شعارًا ومسلكًا. وقد يعاني، هو نفسه، بسبب ذلك المَسْلَكِ مُرَّ المعاناة، وقد تتأذى الأسرة صغارها وكبارها منه، وهو مستمر في صنعه، مستمرئ له. و لم لا؟ ألم يقل الأبوان، أو أحدهما، إن هذا ديدنه؟! وهل يليق به أن يكذبهما فيصنع غير ما يقولانه؟!

وتكبر الطامة عندما يُشَبِّهُ الأبوان ـ أو أحدهما ـ الابن أو البنت بقريب له مكانته عند الجميع؛ فهذا يشبه في ذاك السلوك عمه، وهذا يتصرف مثل خاله، وهذه تقلد جدتها أو ورثت منها ما تفعله أو تقوله، وتلك تحاكي عمتها، وتلك تمشي على خطى صديقة أمها وهلم جرا!

ويزداد الأمر سوءًا عندما يذكر أحد الأبوين، أمام أبنائه وبناته، ما كان منه من هفوات في صغره، وكيف استطاع أن يخفيها عن أبويه هو؛ ويفخر بأنه كان أكثر ذكاءً من أبنائه أو بناته إذ كان يعصي وهو محسوب في الطائعين، ويسيء وهو معدود بين المحسنين(!)

وقد رأيت من أبناء هؤلاء من تنكب طريق الهدى، واختار إضاعة أوقاته سدًى، فلما عوتب كان أول أمره يتذرع بأعذار واهية، ويعد بالعودة من قريب ثم يُخْلِفُ، حتى إذا اشتد عوده، وبلغ مبلغ الرجال، أخذ يقول لناصحيه: لماذا أستقيم وقد كان أبي معوج

السلوك؟ وبماذا تفيدني تصرفات الصالحين وأنا راءٍ أبي بعد كل الذي عمله قد كبر وتزوج وأنجب؟ إنني لا أصبو إلى أن أكون أفضل منه، فدعوني وشأني، وحاسبوني إذا جاوزت الأربعين أو الخمسين أما من قبل العشرين إلى الأربعين فإني لست مغيرًا مما أنا فيه شيئًا (!)

مثل هذا الابن، أو مثل تلك البنت، وجد له مثلاً وسلفًا. مثلاً يحتذيه، وسلفًا ينسب ما يقال عنه أو يوصف به إليه. وتبرأُ بذلك ذمته هو، أو ذمتها هي، من سوء ما يصنع أو تصنع. وما حيلة أحد فيما وُرِّث له توريثًا أو انتقل إليه، بلا طلب منه ولا رغبة فيه، من أصوله لأمه أو أصوله لأبيه؟ وما وجه لوم ابن أو بنت وهي تقلد أبًا أو أمًّا؟!

بل إنك قد تجد الابن أو البنت، بعد ذلك، يتحدث عن الشأن المعنيِّ وكأنه خلقة ربانية لا فكاك منها، أو كأنه قدر محتوم لا يملك تغييره. وتسمعه يقول: «أنا كده»! وهو صادق فهو لا يستطيع رد الأمر إلى أصله مما سمعه مكررًا ومقررًا، عنه هو، أو عن أبويه أحدهما أو كليهما، من عبارات أوحت إليه بذلك السلوك أو بذلك الشعور أو أغرته بتقليد أعمى يَجعل عاقبة أمره خسرًا.

* * * * *

ويزيد الطين بلة أن تجد الأبوين أو أحدهما يدافعان عن الابن أو البنت بأعذار ينتحلونها له انتحالاً، أو بذكر قصص صحيحة ومختلقة، ليتقبل الناس منه ـ أو منها ـ ما يعاب عادةً من سلوك، أو طريق في التعبير عن المشاعر، أو وسيلة للحصول على ما يريد من الأبوين أو من غيرهما. ويأخذ هذا الدفاع صورًا عديدة تختلف

باختلاف الآباء والأمهات، كما تختلف باختلاف الأبناء والبنات، وباختلاف الموضوع الذي يثور حوله أو بسببه هذا الدفاع.

ولكن الجامع بين هذا كله هو أنه تعبير عن رغبة أحد الأبوين أو رغبتهما معًا، في حماية الابن أو البنت من التعرض للانتقاد أو التوجيه أو النصيحة التي يراد بها تقويم سلوكه أو تصحيح مشاعره.

وقد تتوجه تلك الحماية إلى أقرب الناس إلى الأبناء من الأجداد والجدات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ومن إليهم؛ لأن الأب أو الأم الذي يكون شاغله حماية أبنائه من (الغير) لا يرى إلا هؤلاء الأبناء، ولا يقدر إلا مشاعره (هو) نحوهم!

وعندما يصل الأمر بالأبوين أو أحدهما إلى هذا الحد تكون النتيجة أن ينصرف الأقربون المحبون عن الاهتمام بشأن هؤلاء الأولاد والبنات، وأن يَلْقَوْهُمْ لقاءً تغلب عليه السطحية، وألا يناقشوهم إلا في مثل حالة الجو، وآخر الأخبار، وهو عادة كلام مكرور معاد لا فائدة فيه وأخبار تافهة، العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر (!)

ويُحْرِم الأولاد والبنات بذلك من خبرات لا تقدر بثمن، ومن محبة شفيقة بهم حانية عليهم، ومن نصح يبتغي الخير لهم؛ لأن أولئك المشفقين المحبين يتجنبون أن يكون كل حديث مع الأبناء مثيرًا لتدخل دفاعي - وأحيانًا هجومي عليهم - من الأمهات والآباء.

* * * * *

رأيت منذ مدة شابًّا يتنطع بوضع طوق ـ مثل الأطواق التي يضعها أصحاب الكلاب المدللة في رقابها ـ في رأسه فيحيطه به،

ويرسم خطًّا من شعر لحيته لا يزيد سمكه عن سُمك حاجبيه، ويلصِّق شعره بمادة تجعله منتصبًا في شعيرات متجمعة أشبه شيء بالمسامير الحادة! فكان شكله من أقبح ما تقع عليه العين وتزدريه! فلما هممت بالتحدث إليه تذكرت أنه يجالس جدته، وأنها تمارس مع أحفادها ـ لاسيما الذكور منهم ـ هذه السياسة الدفاعية ببسالة أحسدهم أنا عليها. فسكتُّ احترامًا لهذه الجدة الفاضلة وحرصًا على مشاعرها. وحدثتني نفسي أنها لو كانت تعينهم على أنفسهم بترك غيرهم يوجههم ويبين لهم الصواب والخطأ والقبيح والحسن، لكانت فائدة حنوِّها عليهم أضعاف ما يجنون منه بحالها التي هي عليه.

وقد حدَّثتها بذلك فاستجابت بفطرتها السليمة لما أقول، وكلفتُ من يحدث حفيدها عن حاله؛ فاستجاب لمَّا علم أن جدته لن تحاول بعد ذلك حمايته.

وتأكدت من هذه الحادثة أنه ليس هناك وقت لا تصلح بعده النصيحة، وأن الأوان لا يفوت أبدًا عملَ الخير أو الرجوعَ إلى الحق.

(14)

الفخـر الكـاذب..

كثير من الآباء والأمهات يستحقون أن يفخر بهم أبناؤهم. وبعض الآباء والأمهات يستحقون أن يتجاوز أبناؤهم وبناتهم الفخر إلى التيه بما هم عليه من صلاح حال واستقامة منهج وحسن صنيع إلى أسرهم، أو مجتمعهم، أو إلى الناس كافة.

وإحاطة الأبناء والبنات بما يفعله الآباء والأمهات ـ أو الأجداد والجدات ـ من أنفع الوسائل لغرس القيم الصالحة في نفوس الناشئة والشباب، ولتحبيبهم في الخير وصنعه، ولتبغيضهم في الشر ومقارفته.

والأبناء والبنات ينقلون معارفهم وخبراتهم وأسباب فخرهم إلى القرناء والزملاء والأصدقاء والأقارب، فذلك هو غالبًا ما يتحدثون فيه عندما يخلون إلى أنفسهم: إعجابًا بما يكون من الآباء والأمهات، أو بما كان من الأجداد والجدات، أو تعجبًا منه، أو انتقادًا له. وكل ذلك لا يبلغ ـ في الغالب ـ مسامع الآباء والأمهات مباشرة حتى يمكنهم تصحيح الخطأ، إن كان، سواء في صحة المعلومات وعدم صحتها، أم في تقويمها وإعطائها حقها من استحقاق المدح أو القدح!

وعندما يكون الشعور بالفخر بالانتماء إلى أب أو أم، أو أسرة بعينها، دافعًا إلى تجويد العمل، والمحافظة على المعاني التي من أجلها

استحق شخص أو أسرة مكانتهم المرموقة، وحائلاً بين الشاب أو الفتاة وبين الوقوع في الأخطاء أو الخطايا، عند ذلك يكون الفخر خيرًا كله.

ومن جميل المروي عن سلفنا في ذلك أن امرأة سألت فقيهًا جليلاً عما إذا كان يحلُّ لها أن تغزل في ضوء مصابيح العسس (الشرطة الذين يجوبون المدن ليلاً وكانوا يحملون مشاعل ـ أو يثبتونها في مواضع معينة ـ تضيء لهم الطرقات) فسألها من أنت؟ فانتسبت إلى أخيها ـ وكان من كبار الصالحين الزهاد ـ فقال لها الفقيه: لا. وعلل فتواه بقوله: «**من بيتكم خرج الورع**»[1]!

لكن هذا الفخر لا يقف عند هذا الحد الممدوح المحمود؛ بل كثيرًا ما يجاوزه إلى معنى الاستعلاء على الآخرين، وعدم معرفة حقهم من الاحترام الواجب والتقدير اللازم لكل إنسان على كل إنسان.

وقد يصل الأمر بالشاب أو الفتاة إلى ما سماه الحديث الصحيح «**غَمْط الناس**» وهو احتقارهم الذي عدَّه الرسول ﷺ من الكبر المحرَّم. فقد روى مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود أنه قال لأصحابه يومًا: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**». قالوا: «**يا رسول الله؛ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، أهذا من الكبر؟**». قال: «**لا! إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَر الحقّ وغَمْطُ الناس**»[2].

(1) ذكره أبو نعيم في الحلية، ط دار الكتاب العربي، بيروت 1980، جـ8 ص353 بلفظ مختلف، وما في المتن من طبقات الصوفية للمناوي، ط أديب الجادر، دار صادر، بيروت 1999، جـ1 ص566.

(2) صحيح مسلم رقم (91).

وفي حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «**بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم**»[1]. وهو حديث صحيح، **وليس المراد فيه بلفظ المسلم من آمن بمحمد ﷺ بل المراد به بنو آدم كلهم، وخرج وصف المسلم مخرج الغالب على حال الناس، أو لأنهم كانوا هم المخاطبين به آنئذ.**

وهنا يأتي دور التربية الأسرية في حماية الأبناء والبنات من الوقوع في هذه الرذيلة: رذيلة مجاوزة الفخر حدَّه إلى احتقار غيرك واستصغار شأنه.

فالوالدان اللذان يجدان بداية مثل هذا الشعور من أولادهما عليهما أن يسارعا إلى استحضار معاني المساواة البشرية، والأخوة الإنسانية المكررة في القرآن الكريم. وتذكير الأبناء والبنات بأن الفخر الذي يجاوز حده من معالم الخلق الجاهلي، وأن رسول الله ﷺ قد حذَّر منه ونهى عنه بمثل قوله: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي أو فاجر شقي. أنتم بنو آدم وآدم من تراب**» [وعُبِّيَّةُ الجاهلية هي الكبر][2].

وقد يصلح في علاج هذه المشاعر أن يُذكَّر البنات والأبناء بأن صلاح الأصل لا يغني عن الفرع شيئًا، وأن خمول ذكر الأصل لا يحرم الفرع النابه حقه من التقدير والتوقير. وهي معانٍ لا يأتي الإلحاح

(1) رواه عن أبي هريرة، مسلم رقم (2564)، وأبو داود رقم (882)، وابن ماجه رقم (4213).

(2) حديث صحيح، رواه أحمد في المسند وأبو داود والترمذي في سننهما، وغيرهم، عن أبي هريرة، وقال فيه ابن تيمية إنه صحيح (اقتضاء الصراط المستقيم ص 73 من طبعة محمد حامد الفقي، 1950).

عليها إلا بخير. وقد وقف رسول الله ﷺ يومًا محذرًا قومه، ذاكرًا إياهم بأسمائهم، يقول: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**»[1]!

* * * * *

لأسرتنا صديقة طيبة لكنها لا تكف عن ذكر أصلها ونسبها، والغنى الذي تمتعت به أسرتها، وأن أباها كان أول من ركب سيارة في بلده... وإذا اختلفت مع رئيس أو مرؤوس أو زميلة عمل أو صديقة بدأت الرد عليها أو معاتبتها أو محاسبتها، أو الحكاية عن خلافهما بقولها: «**من هذه حتى أعنى بها وأرد عليها**» ثم تأتي من أنواع الردود والمعاتبات والملامة بالأعاجيب(!) وتختتمها بمثل ما بدأت به من الفخر بالنفس والأم والأب ومن فوقهما، وبنفي أن تكون مهتمة أصلاً بالرد على ما حدث أو قيل! وكلما رأيتها تصنع ذلك قلت في نفسي: لو استطاعت الانتساب إلى آدم لتفخر بسلسلة الآباء والأمهات لفعلت!

ولو نُهِيَتْ هذه في صغرها عن هذا الصنيع لما كانت ـ كما هي الآن ـ صورة يُتَحدَّثُ بها في المجالس ويَتَنَدَّرُ بصنيعها، كلما صنعته، الأصدقاء قبل الخصوم.

ويزيد هذا الخلق سوءًا أن يُصْنَعَ مع من هو دونك منزلة اجتماعية أو درجة وظيفية، فإن مثل هؤلاء لا يملك أن ينتصر لنفسه؛ فيكون المستطيل عليه بالنسب والغنى ظالمًا مرتين: مرة لنفسه ومرة لأخيه الأضعف منه.

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري رقم (2753)، ومسلم رقم (206).

وسبب استمرار صديقتنا تلك على هذا السلوك الشائن كله أنها لم تُنْهَ في صغرها عنه و لم تُنَبَّهْ إلى قبحه، فشابت على ما شبت عليه!

* * * * *

وأعرف طفلاً فخورًا كل الفخر بآل أبيه، وهم من أوساط الناس لكنهم من شرفائهم وأكفائهم. ولجدته لأبيه نسب شريف محفوظ، فلما شب إلى درجة يعرف فيها شأن الأنساب كان يقول لها ـ جادًّا لا هازلاً ـ إن نسبها الشريف جاءها لأنها اقترنت بجده لأبيه! ولا أزال أرى أسرته كلها ـ وأولهم جدته الصالحة هذه ـ يضحكون لهذا القول، ويستعيدونه إياه أمام من حضر من ضيوفهم، وأنا عليه شديد الخوف أن يكبر وقد استصحب معه الفخر الكاذب المذموم، فيكون بين أقرانه أضحوكة ومُتَنَدَّرًا، فإذا تضخم شعوره السقيم بذلك التميز النسبي تحول إلى مثل خُلُقِ صديقتنا التي وصفت حالها قبلُ(!).

وكفى بالخوف من ذلك سببًا يدفع أهله إلى نهيه عن الاستمرار في هذا الصنيع، ولو على سبيل الأضحوكة والمزحة، فإن معظم النار من مستصغر الشرر.

* * * * *

وقد تنال الدنيا من بعض ذوي الأصول الطيبة، أو يقسو الزمن على بعض ذوي المال فيسلبهم أموالهم. فإذا كان الواحد من هؤلاء

مبتلًى بداء الفخر الكاذب، والإعجاب بالنفس والأهل، والاستطالة على خلق الله بالنسب والصهر، فإنه يضع نفسه موضع السخرية الدائمة من الخاصة والعامة، أو موضع الإشفاق عليه والرثاء له إن صادف قومًا طيبة نفوسهم، حسنة سجاياهم.

والمخرج من هذا كله أن يربى الأولاد والبنات على القاعدة القرآنية الذهبية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. وعلى شقيقتها النبوية «**لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»[1]. فمن فعل ذلك فقد وقى بناته وأولاده من أن يكونوا كبارًا أبأس منهم صغارًا، وحماهم من أن تساء بهم الظنون وتقع في سيرتهم الألسنة!

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده عن رجل من الصحابة، وأبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله، جـ3 ص100 وهو مروي في المسند عن أبي هريرة (8736)، وعن عقبة بن عامر (17313)، وعن أبي ذر (21407)، رضي الله عنهم، وقال عنه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح (المسند ج 38 ص 474 الحديث رقم 23489). وألفاظ هذه الأحاديث مختلفة لكن معانيها واحدة أو متقاربة.

(15)
صناعة الشخصية

ليس تدليل البنات والأبناء كله مفسدة. بل بعضه كذلك وبعضه ضروري لبناء الشخصية السوية القوية. وأهم الفوارق التي تبينتها في مراقبة البنات والأولاد الذين يدللهم أهلوهم فيفسدهم التدليل، وأولئك الذين يصلح التدليل من أحوالهم ويسهم في بناء شخصياتهم هو أن التدليل المفسد يتم بغير حساب، وفي أحوال كثيرة بغير قصد، بل هو انسياق وراء عاطفة المحبة الطبيعية التي أودعها الله ـ سبحانه ـ قلوب الأمهات والآباء وهو يبدأ في المرحلة التي لا يحتاج فيها الطفل إلا إليه، أي وهو وليد ثم وهو رضيع ثم وهو يخطو أولى خطواته ـ حبوًا أو مشيًا ـ على الأرض.

في هذه السن لا يكون أمام الأمهات والآباء إلا أن يداعبوا هذا الكائن الجديد في الدنيا ويلاعبوه ويسعوا إلى مرضاته بكل طريق ممكنة. وهذا لا بأس به.

بل هو من ضرورات الحياة.

ولعلني لا أعدو الحقيقة إن قلت إنه من الفطرة التي فطر الله القلوب السليمة عليها.

ولذلك قال رسول الله ﷺ لمن تعجب من تقبيل النبي حفيديه حسنًا وحسينًا ـ رضي الله عنهما ـ: «**أوَ أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟!**»[1] وهذه هي الفطرة التي أعنيها.

(1) متفق عليه عن عائشة وهو في البخاري برقم (5652) وفي مسلم برقم (2317).

فإذا تجاوز الوليد هذه السن فأصبح غلامًا أو فتاة، واستمر التدليل العاطفي المحض، واختفت من قاموس والديه عبارات التعليم والتوجيه والنهي عن الخطأ، وحلت محلها عبارات التماس العذر، واستظراف السخف، والضحك على التفاهات التي يقولها أو الحماقات التي يصنعها. وإذا لم يعوَّد أن يصنع بعض الأشياء لنفسه، وأن يقوم ببعض ما يمكنه من مساهمة في عمل البيت - ولو بمثل أن يسقي نفسه الماء، وينظف مكان طعامه، ويضع الصحاف التي استعملها في المكان الذي توضع فيه بعد استعمالها - إذا لم يعوَّد ذلك، بل كانت أمه هي التي تحضر إليه شربة الماء حيث هو، وأُمِرَتْ أخته أن تحمل إليه طعامه، وتعوَّد أبوه أن يسامره ويعابثه لكي يأكل أو يتناول الدواء أو يخلد إلى النوم، وَوُعِدَ على كل واجب يفعله بجائزة، وكأنه يتفضل على الأسرة بفعله؛ وإذا رأته الأم أو الأب وقد تعثر في مشيته، أو عثرت به دراجته فسقط على الأرض أو ارتطم بشيء من الأشياء، صاح أحدهما أو كلاهما خوفًا عليه، أو قيل له إن الأرض التي وقع عليها، أو الشيء الذي اصطدم به هو المخطئ المسيء فعاقِبْهُ(!) فينهال بيده الغضة على ذلك الشيء ضربًا لينتقم مما نزل به من الألم..

إذا كانت تلك هي طرائق تربيته نشأ هذا الولد - أو تلك البنت - أنانيًّا لا يرى في الوجود غير ذاته، ولا يحب الخير إلا لنفسه، ولا يعرف حقًّا لغيره من أبويه فمن فوقهما، وشب لا يتصور نفسه أبدًا في موضع من يخطئ، بل هو دائمًا على صواب ولو كان الذي يقابله جمادًا أو حيوانًا(!) فهو يُحَمِّل غيره التبعة راضي الضمير، لأنه، كما قال الشاعر:

وينشأ ناشئُ الفتيانِ منا

على ما كان عوَّدهُ أبوهُ(!)

وقد رأيت من هذه النماذج صورًا كثيرة لبنين وبنات أصبحوا وهم رجال ونساء مصدر إزعاج مستمر لأسرهم، وعبئًا دائمًا على والديهم، وكنت كلما شُكيَ لي من شأن أحدهم سألت الشاكي: كيف كنتم تصنعون به صغيرًا؟ فلم يكن الجواب يختلف كثيرًا عما وصفت.

أعرف أمًّا فاضلة عاملة، لها ابنتان تخرجتا في الجامعة، وهما تعملان أيضًا. إذا احتاجت إحداهما إلى نوع من خبز الرفاهية ـ المنتشر هذه الأيام في أسواقنا ـ هاتفت أمها لتحضره معها. فإذا تأخرت الأم في عملها، وهي كثيرًا ما تضطر إلى ذلك، خاصمتها ابنتها لأنها أخرتها عن موعد وجبتها، وربما ظلت اليومين أو الأيام الثلاثة لا تكلمها.

وإذا كان موعد السيدة التي تساعدهم في شؤون بيتهم مصادفًا يوم إجازة إحداهما خرجت من البيت منذ الصباح، واضطرت الأم إلى ترك عملها ـ القريب من بيتها ـ المرة والمرتين لترى ما صُنِعَ في البيت وما لم يُصْنَع! وإذا كان ثم واجب عائلي ورَجَت الأم إحدى البنتين لتصحبها فهي إما أن تفعل متضررة، وتنغص بذلك على الأم يومها وليلتها، وإما أن تأبى غير آبهة لتوسلات الأم ورجائها.

وأعرف رجلاً اغترب أكثر من عشرين سنة، وجاء ليزور بلده بعدها، وكان أبوه قد جاوز التسعين، قعيدًا مقيمًا في بيت أصغر أبنائه، وأقام الابن المغترب أيامه في حَيِّ (المهندسين) بالقاهرة

وطالت إجازته حتى ناهزت الشهر، و لم يزر أباه القعيد الذي يقيم في القاهرة نفسها، في حَيِّ (المعادي)! وعندما تعجبت لذلك قال لي صديق عزيز: لقد هاتفه! و لم أكمل الحديث، فقد كان هذا الرجل المغترب أكثر أربعة إخوة، ذكورٍ، نصيبًا من تدليل أبيه وأمه له. وهكذا كان الحصاد.

وقد حدثتني إحدى بناتي أنها سمعت مثلاً دالاًّ على هذه الصورة من التدليل، المؤذي للأبوين، من الصديق العزيز الدكتور هاني السبكي ـ استشاري الطب النفسي ـ قال: «إن الأم التي تدلل ولدها في غير موضع التدليل، أو تسرف في تدليله، مثلها كمثل التي تطعم وليدها أو ترضعه فوق ما يحتاجه، فيتقيأ فتكون هي أول من يصيبها قيؤه» (!) وهو مثل كافٍ لمن تدبره أن يتعلم كيف يضعُ التدليلَ موضِعَهُ فلا يزيد فيه أو ينقص منه عن القدر الذي يحتاجه الطفل عند احتياجه إليه.

* * * * *

وأعرف صورًا من التدليل المحسوب، الذي يضع الشيء في موضعه، ولا يجاوز به قدره، فيثمر رجالاً ونساءً يستحقون الاحترام، ويعرفون حقوق الناس عليهم، بقدر ما يعرفون حقوق أنفسهم، ولا يطلبون الثانية إلا بعد أن يؤدوا الأولى.

تناقش أمامي أبوان في مسألة تعثر ابنتهما وهي تمشي خطواتها الأولى، وكان سقوطها على الأرض مرات مثار إشفاق أبيها ومبعث خوفه عليها، فقالت الأم له انظر إلى عينيها.. إنها وهي تسقط على الأرض تنظر إلينا فإن رأت انزعاجًا أو إشفاقًا أو مسارعة إلى نجدتها

ملأت الدنيا صراخًا وبكاءً مصطنعًا(!) وإذا رأتنا غير عابئين قامت وحدها وعاودت محاولتها. اقتنع الأب بكلام زوجته، وجرَّب. فكان الأمر كما قالت، فاتخذ منهجًا في تربية بناته وأبنائه جعلني أقول الآن عنهم، ممازحًا لأبويهم، بعد أن أصبحوا رجالاً صالحين ونساء صالحات، إن كلاً منهم يصلح لإدارة دولة(!).

ورُزق صديق بابنتين ثم بعد سنين رزق غلامًا ثم فتاة فغلامًا آخر. وكان يسمِّي هؤلاء الثلاثة (الجيل الثاني) من جيليْ أبنائه باعتبار البنتين كانتا الجيل الأول(!). خشي ذلك الأب أن تطغى شخصية البنتين الكبيرتين على الغلام الأول، ثم على اللذين بعده، فاصطنع خطة لتقوية مواقفهم في مواجهة الأختين الكبريين، اللتين كانتا تحسنان التأتي لما تريدان، وتجيدان الاحتيال على أمهما وعلى أبيهما أيضًا!

سمَّى الأب غلامه الأول في طفولته: (الليثَ الأبيضَ)، على اسم أسد كرتوني كان يحكم الغابة في أحد برامج الأطفال التي كانت شهيرة وقتها. فلما شبَّ عن الطوق، وكان للأسرة بيت ساحلي علَّمه السباحة وأخذ يناديه باسم (الحوت الأزرق)، وكان الغلام يعجبه ذلك حتى إذا سئل عن شيء أيحسنه أم لا قال لأمه أو أبيه أو أخته: ما ظنك بالحوت الأزرق؟ هل يعجزه ذلك؟

فلما ولدت البنت الثالثة كان لابد لها من مكانة مع ابنتين كانتا عندئذ تقرآن وتكتبان وتحفظان ما تُحَفَّظانِ من القرآن، ومع ولد هو (الحوت الأزرق) بجلالة قدره. فسمَّاها أبوها: (السمكة المضيئة)، وكان يشتري لها ـ ولا يزال ـ الهدايا التي تصنع على صورة

الأسماك، والملابس التي تزينها أشكال بحرية والأقراط والساعات المصنوعة على شكل سمكة!

وكان فخرها بأنها (السمكة المضيئة) سببًا رئيسيًّا في حمايتها من أن تطغى عليها شخصيات الثلاثة الذين سبقوها في الوجود. وأشعر أنها يسعدها حتى الآن أن تنادى بهذا الاسم المثير لذكريات طفولتها!!

فلما جاء الغلام الثاني، وأصبح خامس خمسة لكل منهم شخصيته الخاصة التي تقوى كل يوم، سمَّاه أبوه في طفولته الأولى (جرين دايزر) عندما يغضب ويزمجر كما يصنع الأطفال، وسماه (نعمان) عندما يهدأ ويضحك ويستجيب لما يُعلَّم. والاسمان لبطلي مسلسلين تلفزيونيين كانا يبثان، حيث كانت تعيش تلك الأسرة، في أثناء طفولة ذلك الصبي الذي أصبح الآن رجلاً كامل الرجولة. فلما جاء المصيف وانتقلت الأسرة إلى البيت الساحلي كان لابد من اسم للصغير، يستطيع أن يجاري به أخاه الأكبر في البطولة والقوة، فأطلق الأب عليه اسم (بطل البحار السبعة)! وهكذا لم يكن لأحد فضل ـ في هذه الأسماء والأوصاف المخترعة ـ ليس للآخر مثله. وفعل السحرُ فعله في شخصيات الجيل الثاني من الأبناء!

وكان هذا الأب إذا أراد أن يعاقب أحدًا من أبنائه وبناته على خطأ وقع فيه تمثل ببيت شعر، أو بآية قرآنية، أو بحديث نبوي، أو بحكمة عربية. وكثيرًا ما كان يقف حيث يكون الولد أو البنت ويبدأ في حكاية قصة ما يتمثل به، فيجتمع الآخرون حوله وتتحول العقوبة إلى درسٍ نافع(!)

وقد حدثني ذلك الأب أنه لا يذكر أن لسانه سبقه بشتم أو تعنيف بلفظ قاسٍ للأولاد أو البنات، بل كان يقول للولد: يا رجُل! وينادي البنت بأحب الأسماء إليها. وقال لي: إن الخجل الذي كان يراه عندئذ في عين المخطئ وقسمات وجهه كان أبلغ ـ عنده ـ من كل عقوبة لفظية أو بدنية يوقعها غيره من الآباء.

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد حدثني هذا الأب أنه استعمل العقوبة البدنية مرة مع أصغر أبنائه، و لم يحتج بعدها إلى تكرارها أبدًا.

كانت الأم في المستشفى، وكان العام الدراسي في نهايته تقريبًا، وكان الأب يبقى مع زوجته إلى ما بعد منتصف الليل عادة. فلما رجع إلى البيت ذات ليلة مبكرًا لم يجد صغيره فيه وانتظر عودته فلم يعد إلا قرب منتصف الليل وكانت مفاجأة مزعجة أن وجد أباه في البيت. قال الأب: سألته أين كان فَصَدَقَني. وكان في مكان لا أسمح له بالذهاب إليه. و لم يكن أمامي لردعه إلا إيلامه بالعقاب، فلما فعلت ذلك فوجئ أضعاف مفاجأته لوجودي في المنزل عند عودته. لكنها كانت آخر مرة يقع فيها في مثل هذا؛ وتمثلت بقول العرب: «آخر الدواء الكي»!!

* * * * *

ولا تزال صلتي الوثيقة بهذه الأسرة مستمرة، ولا أزال أرى الفوارق بين الجيلين: الابنتين اللتين تعلمت الأسرة فيهما كيف تربي الأبناء والبنات، والابنين وأختهما الذين تربوا بخلاصة

دروس التربية الأولى وبتصحيح أخطائها. وهي فوارق كمية لا نوعية، وفي طريقة التعبير لا في جوهر المشاعر، وفي سرعة الاستجابة للنصح أو التوجيه لا في مبدإ قبوله، بل أستطيع أن أقول: طلبه والتماسه!

وهكذا يكون صنع التدليل العفوي غير المحسوبة عواقبه: أنانية وحبًّا للذات وانكفاءً عليها قد يتحول عقوقًا وقطيعة رحم.

ويكون صنع التدليل المقصود الذي يوضع في موضعه: صلاح نفس وقوة شخصية وقدرة على العطاء بنفس راضية وروح مطمئنة.

ومهما نكن قد فعلنا في سالف الأيام مع بناتنا وأولادنا، فإن الاستدراك ممكن، وسبيل الإصلاح موطأة، إذا صحت إرادتنا وجمعنا عزمنا على أن نصلح ما تركنا إصلاحه، ونفعل ما أغفلنا فعله، فإن التعامل الصبور الذكي مع النفس البشرية كفيل بإخراج نوازع الخير فيها لتفعل فعلها، مهما طال بها زمن الإهمال أو الإغفال.

(16)

كعبـــول وكعبـولـــة

لا يوجد بيت يخلو من أسباب خلاف بين الزوجين، وإن شئت قلت بين الأبوين. ولا أزال أذكر عبارة قالها لنا ـ ونحن في السنة الثانية من سنوات الدراسة الحقوقية ـ أستاذنا الشيخ عمر عبد الله البيتوغني[1] ـ رحمه الله تعالى ـ عن الخلافات الزوجية، وأنها ضرورية باعتبار عمق العلاقة بين الزوجين وتشعبها وخصوصيتها. يومئذ لم أفهم مراد الشيخ، رحمه الله، ولكنني بعد أن مارست الحياة وتزوجت ورزقت بالبنات والبنين، وعاشرت المتزوجين من ذوي الأولاد والبنات ومن غيرهم، أدركت معنى عبارة الشيخ ومغزى تعليله الخلافات الزوجية بـ«**عمق العلاقة بين الزوجين وتشعبها وخصوصيتها**»!

أذكر عائلة صغيرة سعيدة، كانت تعيش معنا في بلد عربي، في أول اقتراني بزوجتي أم أولادي ـ رحمها الله ـ وكنا لا نراهما إلا وعليهما مخايل السعادة. إذا ذهبا إلى مكان فهما دائمًا معًا، وإذا أرادا الانصراف فإنَّ نظرةَ أحدهما إلى الآخر (عادة كانت نظرتها إليه) تكفي ليفهم أن ذلك رغبتها فيستأذن وينصرفان.

وكانا يتسوقان معًا و لم يكن ذلك مألوفًا في الوسط الذي يعيشان فيه، وكان من حولهما من الأسر الأكبر سنًّا، ومن ذوي

(1) أستاذ الشريعة الإسلامية بحقوق الإسكندرية ـ رحمه الله ـ وهو من أصل شركسي، وكان حنفيَّ المذهب شديد الالتزام به، مع ثقافة واسعة، ونفس لا تنفتح إلا لمن أحسن الاقتراب منها والتعامل معها.

الأولاد، يأمنونهما على أولادهما إذا سافر الأبوان لإجازة أو مهمة طارئة، وكان الشباب والبنات غير المتزوجين يؤمون بيتهما ويأنسون إليهما حتى كنا نمزح ونقول إنهما دائمًا مشغولان «بجمع راسين في الحلال»!

ذات يوم استجمعت شجاعتي، وأنا منفرد بالزوج، وسألته عن سر سعادتهما الدائمة! فقال لي: إنه في بدء زواجه - وربما قال في اليوم الأول - وقع بينه وبين زوجته شجار حاد بلا سبب مهم، واحتد كل منهما على الآخر، وأسدل الليل ستره عليهما وهما فيما يشبه الخصام. قال: «فوجئت بزوجتي تقوم من سريرها، وتضيء نور الغرفة وتقول لي: اجلس، أريد أن أتحدث إليك» سُرَّ الرجل بذلك وجلس مسرعًا، لكنه كان يتصنع الوقار لئلا يبدو ضعيفًا - هكذا قال لي - في أول خناقة زوجية!

قالت له زوجته: «إننا ننوي أن نعيش العمر كله معًا. ولابد أن تقع بيننا خلافات عديدة، فلو فعلنا مثلما فعلنا اليوم فسنكون أتعس زوجين في الدنيا». سألها: «ماذا تريدين إذن؟» قالت: ألا يكون «الخناق» بيننا، ولكن بين شخصين آخرين هما: «كعبول» و«كعبولة»(!)

فلما تساءل ومن هذان؟

قالت له: بديلان يمارسان الغضب والنقاش الحاد، ويختلفان، ونحن نتفرج عليهما، فإذا انتهيا إلى خير فبها ونعمت، وإن لم يتفقا على شيء طلبنا منهما تأجيل الباقي من خلافهما إلى وقت آخر،

وعدنا نحن إلى حالنا الأصيل زوجين متحابين سعيدين. وإذا رزقنا بأولاد فإن خلافاتنا لا يجوز أن تصل إليهم، وإذا حدث أن سمعوا نقاشًا حولها فيجب أن نوحي إليهم أنه يخص زوجين آخرين، ولو كانا هذين البديلين المخترعين.

واتفقا على ذلك في تلك الليلة، وإن كان الزوج قد قبل هذا الكلام على أنه اعتذارٌ من زوجته وتنصلٌ من حدتها معه في أثناء مناقشتهما، وناما سعيدين وهو لا يعير موضوع «كعبول» و«كعبولة» كبير اهتمام.

في أول مناسبة خلافٍ بينهما بعد ذلك، قالت له زوجته: «شفت كعبولة قالت لي إيه؟» وأخذت تقص عليه شيئًا صنعه أغضبها؛ فجاراها وقال لها: «إن كعبول قال له إنه نادم على فعلته وإنه لم يقصد إغضابها وإنما قصد كذا وكذا...»!

وهكذا لم يمر بينهما خلاف إلا أحالاه إلى البديلين المخترعين وخرجا منه سالمين!

* * * * *

ثم طالت الصحبة بين هذين الزوجين، ورزقا بنين وبنات، وعلمت منهما أنهما لم يختلفا قَطُّ أمام أولادهما، وأن الأولاد كانوا يظنون أنهما يتفقان سرًّا على كل شيء حتى إن جوابهما عن أسئلة الأولاد والبنات كان تقريبًا جوابًا واحدًا.

مرة واحدة ـ طول حياتهما معًا، فيما حدثني به الزوج ـ احتدت الزوجة أمام صغرى بناتها في أمر تربوي، وكان الزوج على

وَشْك الانصراف إلى عمله، فخرج ولم يناقش الأمر لا مع ابنته ولا مع الأم الغاضبة. وعندما عاد متأخرًا من الليل وجد زوجته في انتظاره ـ على غير عادتها عندما كان يتأخر ليلاً ـ لتتعشى معه(!) وتكلما في كل شيء ولم يذكر غضبها ولا حِدَّتها بكلمة واحدة ولم تذكره هي، ونسيا الواقعة كلها، أو تناسياها، معًا.

* * * * *

وكان من أمر هذين الزوجين أن كلاًّ منهما يحيل من يطلب منه إذنًا بخروج من البيت، أو مالاً لشراء شيء، أو مطلبًا مما يكثر منه البنات والأولاد، كل منهما كان يحيل الطالب من أبنائهما إلى الآخر، وكثيرًا ما كان الأولاد يكتشفون أن المحال إليه لا يعرف عن الأمر شيئًا، وأكثر ما كان ذلك يحدث عندما تكون الإحالة من الأم إلى الأب، فقد كان أقل منها مكرًا ودهاءً ولم يكن يحسن اصطناع المعرفة بما يطلب منه وإرجاء الجواب ـ كما كانت هي تفعل ـ ليشاورها في الأمر.

عندئذ كان الموقف يتيح لصاحب الرغبة من أولادهما أن يبسط طلبه وحجته وأسبابه أمامهما معًا. والغالب أنهما كانا يستجيبان بتعديل في الشروط أو الأوضاع؛ فأما الاستجابة فلأن المطالب عادة كانت معقولة، وأما التعديل فكان لتأكيد أن الكبار يعرفون أكثر ويقدرون أحسن!

* * * * *

كانت هذه الأسرة السعيدة ملاذًا لكثير من الأسر التي تمر بها أزمات أو مشكلات تستعصي على الحل بين طرفيها. وكانت حكمة الزوج، وقدرة الزوجة الفائقة على كتمان الأسرار وعدم البوح بها، كفيلتين بأن ينالا ثقة الأصدقاء فضلاً عن الأهل والأقارب.

وكان ما يُعرض في البيت من مشكلات الآخرين وأسباب اختلافهم مدرسة دائمة للبنين والبنات. صحيح أن الأبناء لم يكونوا يحضرون شيئًا من الجلسات التي يجري فيها بحث هذه الأمور، لكن الأبوين كانا موقنين أن ذكاء أبنائهما لن يخونهما بحيث يستشعرون أن ثمة «سرًّا» يجري التداول فيه أو «مُشكلاً» يجري البحث عن حل له.

لذلك كانا، إذا انتهت المشكلة، يحكيان ما يمكن أن يُحكى منها، وهو عادة جوهرها لا أعراضها، وإجمالها لا تفصيلاتها، وكانا يذكران لأولادهما: الأولاد والبنات، كيف اقترحا الحل، أو الحلول، وكيف وافق الطرفان عليه أو كيف أبيا، وكيف يجري التفاوض لحل بديل يرضاه الطرفان أو يقبلانه. كانا عادة لا يذكران الأسماء ولا يحددان الأشخاص، وربما زعما أن الضيف أو الضيفين اللذين زارا البيت بالأمس أو قبله كانت زيارتهما لعرض أمر يخص طرفًا ثالثًا(!) ولكن ذلك كله لم يكن مهمًّا عند الأولاد. كان المثير هو أن يعرفوا المشكلة، ويستمعوا إليها كما يستمعون إلى أحداث فِلْم سينمائي، ويتوقعون حلها على نحو ما يتوقع المشاهدون خاتمة الفِلْم(!)

وكثيرًا ما كان أحد الأبوين يسأل الأبناء: كيف ترون أن تحل هذه المشكلة؟ وحينئذ كانت تتبدى للأبوين الفروق بين آرائهم حدة ورقة، ونضجًا وسذاجة، وكانت هذه الفروق وسيلة صالحة لمعرفة ما يحتاجه كل منهم من عناية خاصة يستكمل بها أسباب النضج، أو القدرة على الانتفاع بهذه المناقشة العائلية واكتساب الخبرة النافعة منها.

* * * * *

إن هذا المسلك في العلاقة بين الأزواج، وفي التعامل مع الأبناء، جدير بأن يهب الأمة رجالاً ونساءً أسوياء، قادرين على العطاء النافع البَنَّاء الذي أمتنا أحوج ما تكون إليه في المجالات كلها، وفي خاص الشؤون وعامها.

(17)
الأسئلة المحرجة

يتعرض الآباء مع أبنائهم لمواقف يحتارون في مواجهتها. فالابن يكبر شيئًا فشيئًا، وتتسع مداركه كما ينمو جسمه، وللمدارك حقوق تربوية، وللنمو الجسماني حقوق كذلك. وإذا كانت التغذية الحسنة والتعرض لممارسة الرياضة، والحديث في بعض الأمور المتعلقة بالطبيعة أو بالثقافة أو بالدين تكفي في الاستجابة لمتطلبات المدارك المتسعة والأجسام النامية في مراحل من العمر، فإن الأسئلة التي يثيرها الأبناء والبنات في مراحل أخرى لا يكفيها ذلك قطعًا.

والأسئلة التي يخفيها الأبناء والبنات عن الآباء والأمهات، وهي تدور في نفوسهم دوران الماء المغلي في قدرٍ مغلق يوشك على الانفجار بما فيه، لا يكفيها مثل ذلك أبدًا.

وأول ما يعانيه الأبناء من الآباء هو تباين ردود أفعالهم تجاه ما يسأل الأبناء عنه، أو يحومون حول الحديث فيه مع الآباء. إن رد فعلنا ـ عندئذ ـ هو أشبه شيء برد فعلنا عند خطأ الطفل الذي لا يميز بين الخطأ والصواب. ترى الأب أو الأم، إن كان في يوم رضاه أو ساعة صفائه مع نفسه، يحسن التأتي لتعليم الصغير وتفهيمه، ولا يزال به رؤوفًا رفيقًا حتى يحسن الفهم عنه. وإن كان الأب أو الأم في يوم بؤسه أو ساعة شقائه وضيقه فإنه لا يحتمل من الصغير شيئًا مهما كان هينًا، بل لا يحتمل منه ما تعود الصغير على فعله أو قوله دون أن يحاسبه عليه أحد. وقد تنكسر أداة منزلية فنقول للصغير (فداءَك)، (ولا يهمك) ونهوِّن عليه الأمر لأننا في حال رضا

واستقرار نفسي وعاطفي. وقد يتسخ فراش أو سجادة فنقيم الدنيا ولا نقعدها لأننا في عكس تلك الحال أو ضدها.

وهنا تضل بالصغير سبل الفهم وتعسر عليه الدروس التي نلقنه إياها. فهو يرى أن الذي انكسر لا يعود، ومع ذلك فقد هونا عليه فعلته ورفقنا به، ويرى أن الذي اتسخ ينظَّفُ، ومع ذلك فقد ثارت ثائرتنا بسبب اتساخه، وهو لم يقصد أن يحدثه لكنه أخطأ الخطأ نفسه الذي كسرت بسببه الآنية من قبل (!!).

إن الآباء إذا استحضروا أثر تباين ردود أفعالهم حيال ما يقع من الأبناء في طفولتهم وصباهم، تجنبوا أن يكرروا ذلك معهم في فتوتهم وشبابهم.

* * * * *

يسأل الابن أو البنت سؤالاً في الدين، يكون محيرًا ومستفزًّا لعقله الصغير، فيكون الجواب بالحسنى ومحاولة البيان والتقريب للمعاني البعيدة، لأن الذي يجيب سعيدٌ أو هادئ البال.

ويسأل هو نفسه أو أخوه أو أخته سؤالاً مشابهًا في الأمر نفسه أو في سواه فيكون الرد (هو كده)، (احفظ هذا ولا تسأل) وقد يزاد على ذلك تأنيبه على كثرة كلامه فيما لا يعنيه أو لا يفيده.

والآباء والأمهات من أولى واجباتهم أن يَعْلَموا أن الطفل لا يَسْأَلُ إلا عما يعنيه. نعم قد لا يكون الجواب مفيدًا فائدة عملية للسائل لكنه يشفي حاجة عقلية أو قلبية هي التي حملته على توجيه السؤال.

عندما توفي شخص مهم في الأسرة سألت إحدى البنات (هو ربنا حيموت امتى؟). كان السؤال مفاجئًا ومخيفًا للأبوين وتسرع أحد

الأبوين بلومها وتقريعها وتهديدها بالعقوبة العاجلة إن هي فكَّرَتْ (!) ثانية في مثل هذه الأمور. وسكت الآخر حتى انتهت زوبعة الغضب. وأخبر شريك حياته أن نفوس الصحابة قد خطر فيها أسئلة مشابهة فعلَّمهم النبي أن يصرفوا هذه الخواطر عنهم بتذكر الإيمان بالله ورسله، والاستعاذة من الشيطان ووسوسته[1]؛ وتحيَّن فرصة هدوء حال الأسرة، على مائدة العشاء، فشرح، بما يناسب حال الصغار، الفرق بين الخالق سبحانه وتعالى والمخلوقين. وبيَّن لهم أن العقيدة الإسلامية تنفي عنه سبحانه ما يَرِدُ على العباد من حوادث المرض والعجز والفناء، وذكر أن السؤالَ فطري لمن لم يعرف هذه الحقائق، ولا مشكلة فيه، ولا بأس بعرضه. والواجب على كل من وجد في نفسه ما لا يعرف جوابه أن يسأل عنه. وأرجع غضب شريك حياته عندما سئل السؤال أول مرة إلى الحزن الذي كان يملأ النفوس لموت ذلك الكبير في العائلة؛ وعرَّف الصغار أنه يمكنهم الانتظار إذا لم يكن الأمر ملحًّا ليسألوا عما يشاؤون في غير أوقات انشغال الأبوين، أو المدرسين، أو أي شخص يوجهون السؤال إليه، بأمور مهمة... وهكذا تحول السؤال المفزع إلى مناسبة لتعليم الجميع.

* * * * *

وعندما يبدأ الأبناء في تبين الفروق بين البنين والبنات تبدأ عادة الأسئلة المتعلقة بكيفية الإيجاد من العدم وأشهرها سؤال (كيف جئت؟).

أذكر أننا عندما واجهنا هذا السؤال لأول مرة طلبنا ممن سأله أن ينتظر إلى الغد لأننا لا نجد وقتًا لهذا الموضوع الطويل اليوم. ونام

(١) صحيح مسلم، الأحاديث من رقم 132 إلى رقم 136، وشرح النووي لها، طبعة دار ابن حزم، بيروت 1423هـ = 2002م، ص 219 وما بعدها.

الأبناء والبنات، وخلونا معًا ـ أمهم وأنا ـ وكنت سعيدًا جدًّا أن عبء الجواب واقع عليها لأن تخصصها في التمريض، ودراستها العليا في علم النفس، يمكنانها من إجابة أفضل من إجابتي (!) واتفقنا على عناصر الموضوع، ما يتصل منها بالعلم، وما يتصل منها بالدين، وما يتصل بالثقافات الشائعة في المجتمع الذي كنا نعيش فيه. وكانت تجربة جديدة عليها وعليَّ: أن أخرج من الموضوع كله، وتتولاه هي بكامله. ولم تَفُتْ تلك الملاحظة ذكاء إحدى الشقيات الصغيرات فسألتها: (هو أبي ليه مش بيتكلم؟)! فقلت لها بسرعة: هذا من اختصاص أمكم فهي التي تُحْسِنُه أكثر مني. وتكلمنا كثيرًا بعد انتهاء الموضوع الأصلي في الاختصاص وكيفية تحصيله وفوائده إذا اتسع أفق المتخصص، وسوء حظ من لا يعرف إلا ما دقَّ من موضوعات تخصصه ولا يلقي إلى سواها بالاً. وأذكر بعد سنين أن أحد الأبناء ذكر لي صديقًا له يفتقد صحبة أبيه، وأرجع ذلك إلى ما سمعه، وهو بعد طفل لا يكاد يميز، عن الإغراق في التخصص الذي يمنع صاحبه من الأخذ بطرفٍ من كل مهم في معارف عصره وثقافاته.

وقد حكينا هذه القصة لعشرات من الأصدقاء، ومن شباب الآباء والأمهات، وأحسب أن أكثرهم قد انتفع بها في تربية أبنائه وتخلص من إجابات من نوع: «وجدناك على الباب» و«تقيأتك دون أن أعرف من أين أتيت» و«قمت من النوم لقيتك جنبي»... إلخ هذه الإجابات التي لا تزيد الصغار إلا حيرة تدفعهم إلى سؤال آخرين قد تكون في إجاباتهم مفاسد يصعب إصلاحها.

ومثل ذلك كان الحال في أسئلة المراهقة الشهيرة التي يتعرض لها كل أب وكل أم. اتفقنا على تبسيط الحقائق العلمية، وتكبير الحقائق الخُلقية، والتركيز على القيم الدينية، والتحذير من الوقوع في حبائل إغراء

الأقران، من زملاء الدراسة أو أصدقاء الشارع أو النادي، أو غيرهم، بلذة حرام، أو الإغواء بتجربة ممارسةٍ ما بزعم أن التجربة لن تضُرَّ لأنها مرة لا تتكرر (!) وأضفنا إلى ذلك اهتمامًا دائمًا بشؤون من كان في سن المراهقة من الأبناء والبنات، حتى مرت الأيام بسلام فيما نظن، أو بخسائر قليلة جدًّا، حتى إننا لم نشعر بوقوعها، إن كانت قد وقعت.

* * * * *

وفي مثل بلادنا تثير السياسة وأحوالها قلق الشباب وتساؤلهم عن كثير من الأوضاع والأحوال والأشخاص. والوعي السياسي ضروري للإنسان في أي مجتمع كان. والتفرقة بين المعرفة السياسية والممارسة السياسية المشروعة من جانب، وبين التهور السياسي والعمل السياسي غير المشروع من جانب آخر ضرورة من ضرورات التربية الصالحة.

كنا أسرة تشغلها السياسة صباح مساء. وكان بيتنا ـ ولا يزال ولله الحمد ـ يؤمه مشتغلون بالفكر والثقافة والسياسة من ألوان شتى، وكنت حريصًا على أن يعرف الأبناء والبنات هؤلاء الأصدقاء جميعًا. وأن يتبينوا الفوارق الفكرية والسياسية والثقافية بينهم، وأن يجلسوا، ولو بعض الوقت، في مجالسنا ليسمعوا ما نقول ولو لم يستوعبوه كله. ولم أكن أجد حرجًا في أن أقول لهم (عمو فلان على خطأ) و(عمو فلان لم يوفق) و(الصواب فيما قاله فلان). وكنت أبالغ عامدًا في توقير من لا أوافقه الرأي، سواءً فيما يسمعون وفيما يقرأون أو يتابعون من أحداث ومواقف. وقد أوْرَثَ ذلك الأولاد والبنات احترام الجميع وتقديرهم، وتعلموا عندما كبروا التمييز بين ما يقبلونه وما يرفضونه وما يتوقفون فيه. كل ذلك وهم لا ينتمون

سياسيًّا وإنما ينتمون وطنيًّا فحسب، وقد سمعت أحدهم منذ أسابيع، وقد أصبح أبًا مسؤولاً، يقول لصديق له من جيله: «الوطنية فضيلة، لكن التعصب السياسي رذيلة». تلك كانت حصيلة تجربته الشخصية عبَّر عنها هذا التعبير العاقل وهو لَمَّا يبلغ الثلاثين من العمر.

* * * * *

وهناك بيوت تعتبر السياسة من المحرمات، والانشغال بالمسائل العامة من إضاعة الأوقات، وترى أن حديث الأولاد فيها مع أقرانهم خارج البيت قد يكون من المهلكات!! ونتيجة ذلك أن ينشأ الأولاد غير مدركين لشيء مما يدور حولهم من أمور أوطانهم، أو أمور العالم الأوسع. ومنع الأبناء من تحصيل الوعي السياسي، إذا كان يريح الآباء في مراحل الشباب والمراهقة، مما قد يتعرض الأبناء له من مصاعب ومشكلات، فإنه يجني على هؤلاء الأبناء أنفسهم عندما يصبحون رجالاً ونساءً غير فاقهين شيئًا مما يجري في دنياهم أو دنيا غيرهم.

أذكر أن شابًّا، ممن كان حظ الوعي السياسي في بيتهم عاليًا، التقى في أحد اجتماعات اليونسكو بالفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوي، وجرى حديث بين عبد الرحمن بدوي وشخص آخر من غلاة اليسار حول ما كان يحدث يوم ذاك في بعض بلاد أمريكا اللاتينية، فلما شارك فيه الشاب بما ينم عن فهم لما يجري، وأبدى آراء أعجبت عبد الرحمن بدوي سأله «هل أنت شيوعي أيضًا؟» فكانت الإجابة بالنفي. وكان عجب عبد الرحمن بدوي غير قليل: أن شابًّا ليس شيوعيًّا (!) يتابع الأوضاع السياسية في ذلك الجزء من العالم. ولم تكن هذه المتابعة إلا حصيلة قراءة الصحف التي تعود الشاب عليها في بيته

منذ نعومة أظفاره، فهيأته الثقافة السياسية التي حَصَّلها لأن يحظى بإعجاب مثل عبد الرحمن بدوي في قامته الفكرية العالية.

وأظن الآباء الذين يحولون بين أبنائهم وبين الوعي السياسي يُفقدونهم، بالإضافة إلى فرصة معرفة العالم وما يجري فيه، فرصًا كثيرة للتعارف مع الناس وتبادل الرأي معهم والاستفادة من ثقافتهم. وفقدان هذه الفرص خسارة محققة لا شك فيها.

إنني لا أدعو كل بيت إلى الاشتغال بالسياسة، ولا أدعو كل أب وأم إلى جعلها جزءًا من منهج التربية اليومي لأبنائهم ـ كما يفعل كثيرون ليسوا مخطئين ـ وإنما أدعو الآباء إلى أن يتحملوا المناقشة السياسية مع أبنائهم وأن يجيبوا عن أسئلتهم التي تتصل بالمسائل العامة المحلية والدولية، أو يحيلوهم إلى مصادر أو أشخاص تعينهم على الفهم الصحيح لهذه المسائل.

وليس في هذا أي حرج من أي نوع، وهو لا يسبب أي ضرر بأي قدر، بل العكس هو الصحيح.

* * * * *

لقد أيقنت، مع طول التجربة وتعدد أطرافها، من الكبار والصغار، أن الحرج من بعض تساؤلات الأبناء يقع في نفس الآباء. وأنه ليس هناك موضوع يرد فيه سؤال لا يمكن للمسؤول، إنْ فكر فيه قليلاً أو كثيرًا، أن يجيب إجابة صحيحة شافية للسائل دون أن يضطر إلى مجاوزة حدود اللفظ اللائق أو مدى التعبير الكريم.

(18)
... وجاء الأحفاد

ينفق الأبوان عمريهما في تربية البنين والبنات، فإذا بلغ الفتى أو الفتاة السن التي يكون فيها مهيئًا للزواج كان أكبر تطلع الأبوين إلى امرأة صالحة للولد أو رجل صالح للبنت.

بعض الآباء يرون الصلاح في كثرة المال، وعلو المنصب، واتساع المستقبل، للزوج المنتظر أو المتقدم للاقتران بابنتهم.

وبعض الآباء يرون الصلاح في الجمال الجسدي، والرقة الأنثوية، واتباع ما جدَّ من العادات والأزياء، والرطانة باللغات الأعجمية في بعض المناسبات، للزوجة المنتظرة أو التي يختارها ابنهم.

وكلتا النظريتين غير صحيحة. فالزوج الصالح هو الذي يعرف حق الفتاة عليه، ويكرم نُزُلَها في بيته، ويجعل حقها كحقه أو قبل حقه. وذلك لا يكون إلا ممن حسن دينه وكمل خلقه، ففي الحديث الصحيح: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1] وعلى هذا ينبغي أن يقدر الآباء الصلاح أو يقيسوه. والقدرة على مواجهة المتطلبات المادية للحياة اليومية ضرورة، لكنها لا يمكن أن تكون وحدها ـ إذا لم يحسن الدين والخلق ـ كافية للحكم بالصلاح للزوج.

(1) رواه الترمذي عن عائشة برقم (3985).

والأمر نفسه منطبق على البنت التي يسعى الابن إلى زواجها. ففي الحديث الصحيح: «تنكح المرأة لأربع، لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك»[1].

ويتزوج الفتى أو الفتاة، ثم يرزقان بأبناء وبنات، وتبدأ بذلك مرحلة جديدة في حياة آبائهما. لقد أصبح الابن أبًا والبنت أمًّا. وأصبح الأب والأم جَدًّا وجَدَّةً.

والتغير الذي يصيب مشاعر الأبوين نحو الصغار ـ الأحفاد ـ عند هذه المرحلة من مراحل الحياة لا يمكن إيجاز وصفه ولا جمع حقائقه في جمل أو كلمات قصار. إنه تغير يعبر عن حياة كاملة جديدة تغاير مغايرة شبه تامة حياتهما قبل أن يصبحا جدَّين!!

* * * * *

رأيت رجلاً كان حريصًا على أن يبدو جادًّا الجِدَّ كله مع أولاده، وأن يبلغ بهذا المظهر بعض ما يظنه الناس ضربًا من ضروب القسوة في التربية عندما يمنع مباحًا أو يفرط في الإلزام بما لا يراه الناس واجبًا. وعرفت، لصلة خاصة قامت بيننا، أن هذا الجِدَّ وتلك القسوة أمران يصطنعهما اصطناعًا، ويتقن إظهارهما عندما يريد، ليبلغ من تربية بناته وأبنائه ومن التزام زوجته ـ أمهم ـ بمنهجه في تلك التربية، ما كان يحسبه نافعًا لهم جميعًا. وقد تحقق له ذلك، ورأيته مرارًا في خلوات جمعتني به يحمد الله على التوفيق، وأفضى

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة البخاري (5090)، ومسلم (1466). وتربت يداك كلمة تستعملها العرب في الدعاء للمخاطب لا يريدون ظاهرها وهو التصاق يديه بالتراب، كناية عن الفقر، بل يريدون عكس هذا الظاهر، أي يدعون له بالغنى. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، مادة (ترب).

إليَّ مراتٍ كثيرة بطرائف من آثار سلوكه هذا حفظتها وأفدت منها كثيرًا في تربية بناتي وأبنائي.

ثم رأيت هذا الرجل الجاد الحازم ـ حزمًا ظنه كثير ممن حوله من باب القسوة ـ بعد أن أصبح له أحفاد. فرأيت شخصًا آخر. رأيته لا يصنع بأحفاده إلا التدليل المستمر، ورأيته يحبوهم بكثير مما كان ممنوعًا على أولاده في مثل أعمارهم، ورأيته يؤنب من أبنائه من يحاول التدخل بينه وبين الأحفاد للتقليل من صور التدليل، لا لمنعها (!) ورأيته يغني لهم ويلاعبهم ويرقِّصهم، وهو فرح أشد الفرح بما ينجحون في قوله وفعله، وصابر كل الصبر على إعادة ما لم يتقنوه المرة بعد المرة.

كنت له محبًّا مجلاًّ مكبرًا فلم أسأله أبدًا عما يفعل ولماذا يفعله، ولكنني راقبته دائمًا متعجبًا صامتًا. وأسررت أحيانًا إلى من غضب من بناته وأبنائه من بعض قوله وفعله بما جعلهم يقبلونه ويرضون عنه ويظهرون له سرورهم به.

وكان ذلك حسبي، ألا يرى هذا الجَدَّ العظيم أبناءَه غضابًا منه لأمر يصنعه وهو سعيد راضٍ.

وكثيرًا ما حدَّثت زوجتي، أم أولادي رحمها الله، بأنني إذا صرت ذا أحفاد فلن أصنع مثل صنيعه، بل سأظل كما أنا أعلِّمُ الصغار الصواب وأردهم عن الخطأ... إلخ ما يقول الأب الشاب غير المجرب لزوجته حين يطلب رضاها المرتقب في مستقبل لم يكن بعد!

ولقيت أم الأولاد ربها ـ راضية مرضية بإذن الله ـ قبل أن أصبح جَدًّا. ورأيتُني أصنع مثل ما كان يصنع ذلك الرجل، الكبير المقام، سواءً بسواء. غاية الفرق أنني حاولت ألا أرد على أولادي وبناتي، أو على

أزواجهم وزوجاتهم، ما يقولونه للأحفاد مما يخالف قولي، أو ينهونهم عنه مما أبيحه لهم، في ملأٍ من الناس، وبوجه خاص حرصت ألا يكون ذلك مني أمام الأحفاد أنفسهم. نعم، كثيرًا ما خانتني عيني فنظرت إلى الحفيد أو الحفيدة نظرة تنم عن الرضا أو التشجيع أو الطمأنينة بحيث يذهب من نفسه أثر القول المخالف الذي يقوله أبوه أو أمه. وكنت ـ ولا أزال ـ أقول لنفسي عندما يحدث ذلك: إنني أحسن القَسْمَ فيما أملك وإنه لا مؤاخذة فيما لا أملك!! وليس هذا إلا من باب إرضاءُ المرءِ نَفْسَه بفعله ولو لم يكن هو أحب الأفعال إليه وأصوبها عنده.

* * * * *

تعلمت من دروس العلاقة بين الآباء والأبناء من جهة، وبين الأجداد والأحفاد من جهة أخرى أن للأجداد حقًّا لا يجوز انتزاعه منهم في الملاعبة والمداعبة والمضاحكة، ونحوها، لأحفادهم.

وهذا كله جزء من التربية التي كنا ننعم بها ونحن صغار نعيش في أسر ممتدة أو شبه ممتدة يقوم فيها الأجداد والأعمام والأخوال والأقارب بأدوار تربوية غير مخططة ولكنها متكاملة، ينشأ الفتى أو الفتاة بسببها نشأة سوية يكثر فيها الرضا ويقل فيها السخط.

وتعلمت من ذلك أنه من الخطر الكبير على الطفل الصغير أن يشعر أنه لا ملجأ له إلا أبوه أو أمه أو كلاهما. إن الطفل يخطئ ويصيب. وهو قطعًا يخطئ أكثر مما يصيب. فإذا كان الأبوان ـ أو أحدهما ـ يغضب من الخطأ، ويعنِّفُ عليه، ويعاقب بمثل الحرمان من النظرة الحانية أو الامتناع عن الكلمة الموحية بقرب الانفراج والعفو عن الخطأ، ولم يكن للطفل سبيل إلى شيء من ذلك عند غيره،

ضاقت به الدنيا، واستبد به الخوف، وفقد الأمل القريب في إصلاح ما بينه وبين الناس الذين هم عنده أبواه أو أحدهما. لكن الصغير الذي يعرف أن غير الأبوين من حوله، وأن رأيهما في فعله ـ ولو كان خطأ ـ قد يكون غير رأي أبويه، تتسع له الدنيا، ويحسن بعد ذلك التعامل مع غيره، بل ومع الأبوين إن غضبا، لأنه سوف يحسن التحايل على غضبهما برضاء من يحبان ويحترمان. وقد يكون من ذكاء الأب أو الأم أن يحكي القصة كاملة لمن لجأ الصغير إليه من الأقربين ملتمسًا منه بيان خطأ الصغير وسوء عمله، وعندئذ سيكون البيان بغير غضب، ويأتي من حيث اطمأن الصغير إلى الرضا عنه فيبلغ أثره كأحسن ما يحب الأبوان ويرضيان.

* * * * *

وعواطف الأجداد غير متناهية. لكن المساهمة في المهمة التربوية توجب عليهم ـ أحيانًا ـ إخفاءَها أو تجاهلها، أو التعبير صراحة عن عكس ما تمليه العواطف عليهم، حرصًا على مصلحة الصغير واستقامة أمره في عاجله وآجله.

وأحسن الأوضاع في هذا الشأن، وهو لا يتوافر دائمًا، أن يكون بين الآباء والأجداد اتفاق في الفهم، ولو كان غير معلن، على طريقة معاملة الصغار ومكافأتهم عندما يحسنون، ومؤاخذتهم عندما يسيئون. وقد رأيت أمًّا ذكية تقول لصغيرها: «نحن هنا في بيت جدو نفعل ما يقوله وما تقوله جدتنا. فإذا عدنا إلى البيت رجعنا إلى نظامنا المعتاد». وكان هذا حلاً مثاليًّا أرضى الجَدَّين، وأسعد الصغير، وحفظ للأم حقها في الاستقلال بقرارها، وجنبها غضب زوجها

الذي لم يكن راضيًا أبدًا عما ظنه سوء تصرف من صغيره وعدم لياقة من جَدَّيه اللذين شجعاه ـ في ظن الأب ـ على تصرف لا يليق!!

أعلم أن ما فَعَلَتْهُ هذه الأم ليس بمكنة كل أم أن تفعله وهي آمنة عواقبه عند عودتها إلى بيتها (!).

وأعلم أنه ليس كل زوج في مثل دماثة خلق زوجها وأدبه الذي جعله يقبل ذلك القول منها ويعلن موافقته عليه (!).

ولكن ذلك كان موقفًا مفيدًا أعجبني، ورأيته قابلاً للتكرار بصور مختلفة وبطريقة مناسبة لكل موقف يكون فيه الأبوان، أو أحدهما، في حيرة من أمره بسبب الاختلاف في استقبال صنيع الصغار بين واجب المربين المباشرين وعواطف الكبار المجربين. وهو اختلاف يقع كل يوم في كل بيت تجتمع فيه الأجيال المتوالية، والسعيد من تخلص منه ومن أسبابه ولو باختراع قاعدة كالتي اخترعتها ـ لوقتها ـ تلك الأم العاقلة الذكية.

* * * * *

مما لا أرضاه في جيل الأمهات والآباء ظن كثيرين منهم أن اللجوء إلى الأجداد في شأن من شؤون تربية الأولاد ينقص من قيمتهم في نظر أبنائهم وبناتهم. وقد رأيت من تربية أولادي وبناتي عكس ذلك تمامًا. فقد كنت وأمهم، عندما نريد إقناعهم بأمر لم يستجيبوا له ابتداءً، نذكر لهم أن جدهم (العوا) أو جدهم (بكير) أو جدتهم (وافرة) أو جدتهم (وهيبة) أو جدتهم (روحية) قالوا أو فعلوا كذا وكذا، فكانت استجابتهم لذلك أسرع مما نتصور في كل مرة فعلنا فيها هذا. وكان لدينا دائمًا فرصة لنجد من أقوال الأجداد وأفعالهم ما ننجح به فيما

نريد. فلم يكن هؤلاء المقتدى بهم هم الأجداد والجدات الطبيعيين وحدهم؛ ولكن كان هناك جدو (حسن العشماوي)، وجدو (الشيخ شلبي)، وجدو (عبد الحليم الجندي)، وكان هناك العشرات من الأعمام من أصدقائي ومن الخالات من صديقات أمهم، ومن المعلمين الذين علموني أو المعلمين والمعلمات الذين علموها... وهؤلاء جميعًا كانوا حاضرين ومؤثرين في تربية أبنائنا وبناتنا.

لقد كنا بحكم ظروف الغربة الطويلة نحيا مضطرين في صورة أسرة صغيرة (زوجان وأولادهما) ولكننا جعلناها على قدر ما استطعنا أسرة ممتدة تتعامل فيها الأجيال ولو لم تلتق، ويتأثر اللاحق بالسابق ولو لم يره.

والآباء الذين يجعلون للأجداد هذه المكانة يفيدون أولادهم وأنفسهم أول ما يفيدون، ويكسبون رضاء الأجداد والجدات عنهم، وهو رضاء لا ينقضي أثره وتتوالى بسببه البركات والرحمات على الكبار والصغار جميعًا.

* * * * *

وقد تقتضي ظروف الحياة أن يعيش الأحفاد مع الأجداد حياة دائمة؛ إما لسفر الأبوين، أو لطلاقهما أو لوفاة أحدهما، أو لغير ذلك من الأسباب. عندئذ لا يجوز أن يقتصر دور الأجداد على الإشباع العاطفي للأحفاد، أو لأنفسهم، بتدليلهم وإجابة ما يطلبون. وإنما يجب أن يؤدوا مع أحفادهم الأدوار التربوية التي كانوا يؤدونها مع أبنائهم، وأن يراعوا في ذلك الاختلافات الثقافية والاجتماعية التي يُحدثها الفارق الزمني بين الوقت الذي ربَّوا فيه أبناءهم والوقت الذي يربون فيه أحفادهم.

وعلى الأبوين أن يجعلوا حق الأجداد في التربية مقدمًا على حق من ليس مقيمًا منهما مع أولاده. إن القاعدة الحكيمة التي تقول: «الغُنْم بالغُرْم» توجب كما حملنا الأجداد مسؤولية الرعاية المباشرة للأبناء بإقامتهم معهم، أن نقرَّ لهم بحقهم في تربيتهم بالطريقة التي يقدرون عليها والتي يرونها مناسبة، ولا يجوز أن نحملهم على ما لا يريدون أو ما لا يستطيعون من وسائل التربية وقيمها.

وإقامة الأحفاد مع الأجداد تتيح لهؤلاء فرصة استدراك ما فاتهم في أثناء تربيتهم أولادهم. وهو استدراك يجد الأبناء ـ بعد أن أصبحوا آباء ـ أثره في أنفسهم ويستشعرون حدوثه، فيعملون على إصلاح ما لم يصلح في التربية الأولى.

إن الإنسان السويَّ يربي نفسه طول عمره، ولا يكف عن إصلاح عيوبه كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ويعيب المرء أن يكون قادرًا على ذلك ولا يصنعه أكثر مما يعيبه أن يعاني من عيب أو نقيصة. والإفادة من تطور الطرق التي يستعملها الأجداد مع الأحفاد، بعد أن تراكمت خبراتهم، وسيلة ناجعة لإصلاح المرء نفسَه. والذين يفعلون ذلك يجدون له سعادةً ولذةً لا عِدْل لهما ولا مثيل. ومن أعظم العيوب أن يُواجَهَ الآباءُ والأجدادُ بأنهم قصَّروا في تربية الأبناء، أو أساؤوا، عندما يحسنون تربية الأحفاد. إن هذه المواجهة إيذاءٌ للأجداد يبلغُ بفاعله، أو قد يبلغ به، مبلغ العقوق المحرَّم. وحين لا يكون كذلك، لرقة في القول أو لوضعه في موضع الممازحة أو المداعبة، فإنه يتضمن نكرانًا للجميل وعدم تقدير لظروف الأجداد عندما كانوا مجرد آباء قليلي الخبرة والتجربة. والصمت عن هذه الفوارق التربوية، والإفادة منها هو الواجب الذي لا يجوز سواه.

(19)
فرحــة العيـد

عيد بأية حال عـدت يا عـيد..

بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟!

هكذا قال المتنبي في قصيدته التي هجا بها كافور الإخشيدي وهو خارج من مصر. وأردفه بقوله:

أما الأحبة فالبيداء دونَهُمُ

فليت دونك بيدٌ دونها بيدُ!

وكتب صديقنا الشاعر الكبير الدكتور عبد الله العثيمين في قصيدته (صدى العيد) يقول عن بيت المتنبي الأول:

هذا السؤال مليك الشعر سيِّدُه

ألقاهُ فالدهـر إنشاد وتغريد!

تذكرت هذا الشعر الجميل كله، وتذكرت الأعياد التي مرت بنا مع البنات والأولاد، وكيف كانت أيامها دائمًا مليئة بهجة وسرورًا وصلةَ رحمٍ ومودةَ أصدقاء. تذكرت ذلك عندما قرأت على موقع الجماعة الإسلامية على الشبكة الدولية للاتصالات والمعلومات (الإنترنت) المقالة الآتي نصها:

«مع أبي في عيد الأضحى: ذكريات ودروس

كان العيد دائمًا حدثًا كبيرًا جدًّا في أسرتنا وله الكثير من المراسم التي تجعله درسًا دينيًّا عمليًّا ممتدًّا وضاربًا بجذوره في حياتنا الأسرية على مر السنين..

دائمًا ما تبدأ مراسم أبي الأسرية فيه بأن يذكرنا على مائدة الغداء أو العشاء بحديث الرسول ﷺ حين قال للصحابة ما معناه أن الله أبدلكم خيرًا من أعياد الجاهلية؛ عيدي الفطر والأضحى، وينفي لنا بذلك صحة تسمية أية مناسبات أخرى باسم العيد ولو أنه لا يمنع أن يُحْتَفَلَ بها احتفالاً أسريًّا ضيق النطاق.

أما عيد الأضحى خاصة فكانت بداية مراسمه ـ وأهم ملامحه في ذاكرتي ـ أن يحكي لنا أبي ونحن على مائدة السحور قبل يوم عرفة أو على مائدة الإفطار (وكان كلاهما أكلة الفول المفضلة لديه على طريقة جدتي، والدته، رحمها الله) بعد صيام هذا اليوم قصة حجة الوداع، ويسرد علينا خطبة الوداع بنصها الذي يحفظه، ويكرر عباراتها الواحدة بعد الأخرى مرارًا وتكرارًا بتأثر بالغ، حتى إنني كلما قرأتها أو سمعتها أو سمعت منها جزءًا، بعد مرور سنوات طويلة على آخر مرة سمعتها منه، أسمعه وكأنه بصوت أبي وكما كان يكرره لنا.

ثم كان يشرح لنا معنى كل عبارة وكيف أرسيت بها الأحكام النهائية القاطعة في الربا، وفي دماء الجاهلية، وفي حقوق النساء. وكان يسهب في الأخيرة ويضرب الأمثلة بما نراه ونسمعه ممن حولنا من الناس، ويشرح لنا ما يوافق منه وصية الرسول ﷺ وما يخالفه.

ثم كبرنا وأصبح أبي يسألنا في المناسبة نفسها أن «نسمِّع» له نص الخطبة فكنا نتسابق في تكملة أجزائه حتى نتمه، ثم يصححه لنا ويعيده علينا كاملاً ليثبت في أذهاننا النص الصحيح.

وهكذا أصبحت خطبة الوداع وأحكامها جزءًا لا يتجزأ من ضميري ووعيي بالإسلام، وصرت أكرر العادة نفسها مع أطفالي

مشتاقة ليوم يكبرون فيكونون أكثر قدرة على فهم معانيها ليعيشوا معي ما عشته، واستمتعت به، مع أبي في أجمل أيام العام.

وفي صباح يوم عرفة يسألنا أبي فردًا فردًا إن كنا صائمين اليوم، و لم يكن يلومنا لو لم نصم بل كان جوابه الوحيد دائمًا: من صام يوم عرفة غفرت له ذنوب عام سابق وعام تال، فاحرص أن تصومه أو احرصي أن تصوميه في العام القادم. وبعقل الطفلة التي كنتها آنذاك، كنت أقول «الحمد لله أن المغفرة لذنوب عامين فإن صمت العام القادم تكون قد فاتتني مغفرة عام واحد فقط!».

ثم كنا نجتمع حول التلفاز لنشاهد خطبة عرفات ونستمع إليها معًا، كلنا، لا يتخلف أحد؛ وإن تأخر أحدنا في النوم كان أبي يوقظه ليستمع إلى الخطبة وكان يعلق عليها باستمرار في أثناء كلام الخطيب فيشرح لنا ما فيها من فقه وسياسة ومن أخطاء نحوية كان الخطيب يقع فيها أحيانًا، وكان يحدثنا عن تاريخ هذا الخطيب وعمله في المؤسسة الدينية السعودية وقرابته بآل سعود أو آل الشيخ ودلالات كل من ذلك ويبين لنا كثيرًا من السياق غير المصرح به في الكلام فيبين لنا مثلاً لِمَ يقول هذا الخطيب هذا العام شيئًا ما بينما لم يقله خطيب العام الماضي... إلخ. وهكذا اكتسبنا ثقافة واسعة ومتنوعة من الاستماع مع أبي إلى خطبة عرفة.

وكنت أحيانًا أتمنى سرًّا ألا يطيل الشرح لكي أتمكن من الاستماع فلا يفوتني شيء، ثم حين دار الزمان ونأت بنا الدنيا فَحُرِمْتُ من صحبته الدائمة أصبحت أستمع إلى الخطبة مع أولادي وأتمنى لو كان أبي معنا يشرح لنا معانيها ويبين لنا ما وراءها!

وكان أكثر ما يؤثر فيَّ مشهد الحجيج عند جبل الرحمة في عرفات فأتمنى أن أقف هناك عند الجبل، حين ينعم عليَّ الله تعالى بأداء هذه الفريضة العظيمة الحبيبة إلى قلبي، وألا أقف في أيِّ مكان آخر كما تفعل جمهرة الحجيج، أما أبي فكان حين يرى هذا المشهد، وكأنه يقرأ أفكاري، يقول: «يا أولاد لقد وقف هنا رسول الله وقال: وقفت هنا وعرفة كلها موقف». فأتأثر لقوله هذا تأثرًا كبيرًا وأفكر في رحمة الرسول ﷺ بالمؤمنين في قوله هذا لكي لا يشق عليهم إن تنافست هذه الملايين على الوقوف في هذا المكان الصغير المساحة وتحت الشمس الحارقة في الصيف، الأمر الذي قد لا يتحمله الكثيرون.

ولكني مع ذلك كنت أدعو سرًّا أن أستطيع الوقوف هناك وأن أقضي اليوم كله في الدعاء وقراءة القرآن؛ وأتخيل: ما أجمل أن يكون للمرء يوم كامل طويل لا عمل له فيه سوى الحديث إلى الله تعالى، وما يكون أجمل الطهر والصفاء اللذين سيشعر بهما المرء بعد يوم كامل لم يتفكر فيه إلا في الله تعالى. ولا عجب إذن أن يقول الرسول ﷺ: «**الحج عرفة**». نعم لا عجب، إذا كان المرء في هذا اليوم الجليل وفي تفكره ومناجاته مع الله سبحانه يغتسل من كل ذنوبه تاركًا إياها بين يدي الله تعالى موقنًا من تحقق وعده بالمغفرة.

و لم يكن ليفوت أبي أيضا أن يُسْمِعنا حديث رسول الله ﷺ أن الله يباهي بعباده الملائكة في يوم عرفة وقد أتوه شعثًا غبرًا يرجون مغفرته ويخافون عذابه.. «**أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم**»!

واليوم أتعجب لهذه الدنيا .. كم من مئات الأيام تمر علينا لا نذكر الله فيها إلا قليلاً.. دقائق أو ثواني معدودات؟!.. وكيف يمكن

حقًّا أن تمر كل هذه الدنيا وكل هذه السنين ولا نتمكن من إعطاء يوم واحد كامل لله تعالى بلا شريك؟!

ثم كنا ننفض من حول التلفاز مع نهاية الخطبة ثم نصلي الظهر مع أبي ثم يحكي لنا كيف صلى الرسول ﷺ جامعًا الظهر والعصر في ذلك اليوم، وكان يكرر بعد صلاتنا التكبيرات بصوت عال مؤثر، ويدعونا لمشاركته فيها، ويشرح لنا معنى أيام التشريق، وعمل الرسول ﷺ فيها. وتركت تلك الأمور في نفسي أشد الأثر، فما يزال صوت تكبيره في أيام العيد يرن في أذني كل عيد، فأنا أكبر معه بعد صلاتي في أيام التشريق حتى وأنا تفصلني عنه آلاف الأميال.

أما صباح يوم العيد فكان أول دروسنا فيه حول مائدة الإفطار النهي عن بدعة زيارة القبور في العيد لأنها كما كان يقول لنا بدعة مصرية لا أصل لها ولأن العيد جعله الله للفرح والتزاور وبر الأهل الأحياء. وليس البر بالموتى زيارة قبورهم بل الدعاء لهم وغيره مما بينه الرسول ﷺ في الحديث الشريف. وكذلك لأن موتانا ليسوا في القبور بل أجسادهم فقط، أما أرواحهم فهي معنا.. يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا.

وأما الدرس الذي كان يختص به صباح عيد الأضحى دون عيد الفطر فكان: «في كل قطرة من دمها لك حسنة (أو أجر)» لأني كنت أشفق على الحيوان الذبيح فكان أبي يكره مني ذلك، ويصر على أن أحضر الذبح وأنظر إلى الدم المراق في سبيل الله. وكانت أمي، رحمها الله، وإخوتي الرجال يشاركون جميعًا في الذبح وما يليه، بينما أنا أحاول أن أغتنم أقرب فرصة لأهرب، دون أن يشعروا بي، من مشهد

الدم: يتنازعني الإشفاق على الحيوان المنتفض حين يذبح والخوف والخجل من الله تعالى، إذ أعلم جيدًا أني لست أرحم بالأضحية من خالقها وأني بهذا الهروب أهرب من أجر كتبه الله لي فرفضته! أهرب وكأني أرفض أن أتعلم درسًا يريد الله أن يعلمني إياه وهدية يهديني إياها..

أما اليوم فأنا أحث أولادي على أن يشهدوا مشهد الذبح ويشتركوا فيه كما كان أبي يفعل معي ومع إخوتي. وأتظاهر بالتماسك محاولةً التغلبَ على تلك المشاعر القديمة متمنية أن تنجح محاولاتي هذه، فإن نجحت سيكون هذا مصداق درس آخر من دروس أبي الحبيب الذي طالما قال لنا: كثيرًا ما ينجح أبناء المرء في تعليمه ما لم يفلح آباؤه في أن يعلموه إياه !

سلوى»

كَتَبَتْ هذا النص ابنتي سلوى، وأرسلته إلى موقع الجماعة الإسلامية بديلاً عن تحقيق رغبة القائمين عليه في إجراء حوار معي عن العيد وذكرياته، بمناسبة عيد الأضحى المبارك عام 1429هـ. كان الوقت مزدحمًا بالأعمال التي لا تنقضي والواجبات التي لا تكف عن الطروء، وهي عاجلة دائمًا! فلم أستطع تلبية الدعوة لإجراء ذلك الحوار، فكان مقال ابنتي ـ الذي لم أره إلا منشورًا ـ وقالت في تقديمه إلى الموقع:

«أخي هاني، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فقد حاولت أن تتصلَ بأبي لتسأله عن ذكرياته في عيد الأضحى واتفق أنه كان على سفر فلم تتمكن من الحديث إليه ووعدتك بأن أرسل إليك بعضًا من ذكرياتي معه».

* * * * *

عندما قرأت نص المقالة وجدتني مستغرقًا في الذكريات التي قصَّت سلوى بعضها، و لم أجد في نفسي إلا الشعور بواجب الحمد والشكر المستحقَّيْن لله تعالى: أن الغرس قد أثمر.

كان مما يخيفني في مراحل طفولة البنات والأبناء ومراهقتهم ما أجده في نفوس بعضهم من نفور من بعض ما نحاول تعويدهم عليه، أو رفض لبعض ما نحاول تعليمهم إياه؛ فلما بلغوا مبلغ الرجال والنساء كان سروري - وسرور أمهم رحمها الله - عظيمًا أنهم يستعيدون في المناسبات المختلفة ما تعلموه، ويبدو في أقوالهم وأعمالهم أن ذلك أصبح له في نفوسهم رسوخ السجية وقوتها، وكأنهم لم يكتسبوه بعد معاناة وإنما فطروا عليه ابتداءً!

لقد حَرَّكتْ عبارات سلوى عن الغربة، وفقد التواصل مع أهلها في أيام العيد، عواطف الأبوة في نفسي، فوجدتني أستعيد قول المتنبي «أما الأحبة فالبيداء دونهم»!

وذكرت سنين عددًا كانت البيداء فيها حائلاً بيننا وبين أهلنا ولم تكن وسائل الاتصال متاحة لنا كما هي متاحة اليوم لأبنائنا، وهم مع ذلك يجدون من مشاعر الاغتراب والبعد مثل الذي كنا نجد!

لكن الذي كتبته سلوى عوَّض كثيرًا مما فاتنا - أبناءَ وآباءً - بسبب النأي عن الديار والبعد عن الأحبة. فإن بقاء ما بقي في نفسها دليل حيٌّ على أن الذي كان لم يذهب سدًى.

ولقد أحدث ذلك عندي فرحة بالعيد جديدة أدخلتها عليَّ كلمات سلوى التي هي - وأمثالها - من فضل الأبناء على الآباء بعد كِبَرِ السنِّ ووهنِ العظمِ وقرب الرحيل.

(20)

قيـم تربويـة(*)

إن التجارب النافعة الحقيقية التي أسلفت ذكر كثير منها في الفصول السابقة، والنماذج الحسنة من البنات والأبناء، ومن الأمهات والآباء، لا تقوم إلا باستصحاب القيم الروحية العملية التي يصلح بالتربية عليها شأن الفتيان والفتيات، ومن ثم شأن المجتمع كله.

والقيم الاجتماعية التي يحرص المجتمع العربي المسلم عليها هي أساسًا قيم مستمدة من الدين، والدين هنا وإن كنا نعني به بوجه خاص: الإسلام، فإنه مما ييسر البحث ويتيح تعميم نتائجه أن «القيم» متقاربة، إن لم نقل إنها متحدة، في الدينين الكبيرين في الشرق العربي: الإسلام والمسيحية. حتى إن كل ما يمكن قوله استخلاصًا من نصوص الإسلام القرآنية والنبوية يجد، من حيث هو قيمة اجتماعية وتربوية، أصلاً يمكن إسناده إليه في نصوص مسيحية.

ومن ثم، فالحديث عن القيم الروحية هو حديث عن القيم الدينية، وليست أهميته نابعة فحسب من كون هذه القيم عنصرًا مهمًّا من عناصر الاستقرار الوطني والسلام الاجتماعي، والطمأنينة السياسية، ولكن أهميته تعود كذلك - وربما بقدر أكبر - إلى كون هذه القيم هي أساس السلام العقلي والذهني والنفسي للفرد، وهو السلام الذي يتيح للإنسان أن يتكيف مع مختلف الأحوال، وأن يواجه الأنواع المتباينة من مشقات الحياة، وأن يعيش العسر بالقدر

(*) نشر أصل هذا الفصل في مجلة (العربي) الكويتية، العدد 406، ربيع الأول 1413هـ - سبتمبر 1992م.

نفسه من الرضا والشعور بالراحة الذي يتوافر له في حياة اليسر، والعسر واليسر هنا ليسا ماديين فحسب، بل هما في المقام الأول نفسيان.

أذكر أن صديقي الأعز الدكتور محمد بن أحمد الرشيد، كان يقول لي إنه يغبط صديقًا له، عمل معه أكثر من عشر سنين، ولم تهزه مشكلة من المشاكل الكبرى التي واجهتهما في عملهما، مهما يكن نوعها، وكان يقول عنه إنه لا يعرف إلا كلمة الحل كذا.. أو كذا.. أو كذا.. أما الوقوف عند المشكلة نفسها، والخوف من مواجهتها، والقلق على ما سيكون من آثارها، فهي أمور لا تخطر له على بال أصلاً. وكان محمد الرشيد يعزو ذلك إلى ما يتمتع به صديقه هذا من «سلام نفسي». وبحكم دراسته التربوية العميقة كان محمد الرشيد يقول إنه لابد أن هذا الرجل تربى في بيئة إيجابية، وفي أسرة سعيدة، أورثته هذه الخصلة الجامعة النافعة، وعَلَّمته قيم العطاء والبناء والشجاعة والمواجهة، ووَقَتْهُ من أضدادها التي يعاني بسببها كثير من الناس.

ولا يتأتى للفرد اكتساب القدرة على التحلي بالقيم الاجتماعية ـ الدينية التي نشير إليها إلا من خلال عملية التنشئة التربوية الأولى، وهي العملية التي تتم أساسًا مع الأطفال وتتوجه في المقام الأول إليهم.

والطفل يولد وليس لديه أية عادات اجتماعية، ولا ارتباط بمجتمع معين، لذلك تأتي عملية التنشئة الاجتماعية ـ المخططة والمنظمة ـ لتضع له المعايير التي يعرف بها ـ في ضوء مسلمات

مجتمعه أو قواعده السائدة ـ ما يعتبر عدلاً، وحقًّا، وواجبًا، وممنوعًا، وسلوكًا مباحًا، أو سلوكًا محظورًا، وقوة محمودة في الخلق أو ضعفًا مذمومًا فيه.

وما يتعلمه الطفل في هذه المرحلة المبكرة من حياته: مرحلة التنشئة، يعد أساس الارتباط العاطفي بينه وبين مجتمعه، ويعد، في الوقت نفسه، مصدرًا أساسيًّا من مصادر استقرار النظام السياسي والاجتماعي لما يترتب على التنشئة، المخطط لها، من ثبات القيم التي تتضمنها، وتُشَجِّع عليها، أو توجه إليها، في الفرد نفسه، وصعوبة اقتلاعها أو تغييرها بعد ذلك.

ومعظم ما يتم إكسابه للطفل في مرحلة التنشئة يتم ـ في المجتمع العربي المعاصر ـ بطريقة عَرَضِية، ومن خلال مواقف هي أقرب إلى العفوية والمصادفة منها إلى منهج تربوي معد سلفًا، ومخطط له، لتحقيق أهداف محددة.

ولا مناص لمجتمع يحاول إعادة بناء نفسه، وتغيير ما يسود أفراده ـ للأسف الشديد ـ من سلوكيات مدمرة، من أن يعيد النظر في هذا الأسلوب العفوي لتربية ناشئته، وأن يحاول التخطيط لمستقبله: بالعناية المركزة بما يتلقاه الأطفال والفتيان والفتيات فيه من قيم ومثل. وما يُحَبَّبُ إليهم، أو يُبَغَّضونَ فيه، من الأعمال والأقوال، والعواطف والمشاعر، والمباحات والممنوعات.

* * * * *

إن الهدف الأساسي من العمليات التربوية كلها، بل لعل غاية سعي البشر جميعًا في الأرض كلها، هي أن يسعد المرء، ويعمل على إسعاد غيره! ولن

يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة إلا إذا سَلِمَ من آفات الجسم والنفس والعقل، جميعًا، قدر المستطاع.

«وبراءة الجسم من الآفات تحتاج إلى غذاء ورياضة ونظافة وإقامة صحية وسرور بقدر الإمكان وتحتاج إلى علاج عوارض الأمراض أولاً بأول»، «وبراءة العقل من الآفات تأتي بالتعليم المستمر وباقتلاع الأوهام الخاطئة في شؤون الدين والدنيا معًا»، «وبراءة النفس تكون ببناء الثقة بها، والاطمئنان إلى النجاح، وعدم اليأس من عوارض الإخفاق والتخلص من الكبت، والخجل المبالغ فيه، والقدرة على التحكم في الرغبات المادية والمعنوية»[1].

وأهم الوسائل لتحقيق هذا الهدف هي أن تقوم التربية أو التنشئة متخذة من القيم الدينية ـ أو الروحية ـ الصحيحة سبيلها إلى تحقيق الصحة النفسية والعقلية للفرد، وتحقيق السلام والاطمئنان للمجتمع.

وأصول هذه القيم هي التي يحاول هذا الفصل أن يمثل لها، آخذًا في اعتباره أن الآباء والأمهات والمشتغلين بتخطيط الطفولة، والمهتمين بصناعة المستقبل، سيجدون عشرات غيرها حين يُولُونَ هذا الموضوع عنايتهم ويُولُّونَ شطره وجوههم.

* * * * *

من جميل كلام فقهاء الإسلام، في شأن واجب الكبار نحو الصغار، ما قاله الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه: «تحفة المودود بأحكام المولود»، قال: «**فوصية الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم، قال تعالى:**

(1) حسن العشماوي، هكذا نربي أولادنا، ص 38، ط دار الفتح، بيروت 1984.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ [الإسراء: 31] **فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة. وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم إياهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم ولا نفعوا آباءهم كبارًا»**[1].

وأصول القيم التربوية التي تطالع الناظر في نصوص الإسلام سبعة يجب على الآباء والأمهات العناية بها، والاستمساك بغرسها في نفوس الأبناء والبنات.

فالقيمة الأولى هي الإيمان: والإيمان المعني هنا ليس هو مجرد العلم بوجود إله، ولا التصديق بذلك، وإنما مقصودنا هو الإيمان المؤثر في السلوك بما يفعله في النفس المؤمنة من مراقبة لله عز وجل، وإيثار لرضاه وتجنب لسخطه، وسعي في نفع خلقه، ونزول على حكمه، وطاعة لأمره ونهيه.

وطريقة الوصول إلى هذا الإيمان ليست التلقين الغيبي، ولا الحفظ لأدلة نقلية، أو الإدراك لمعاني الأدلة العقلية، على الألوهية والربوبية. إنما طريقة الوصول إليه تبدأ بتدريب الطفل على التأمل في خلق الله،

(1) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، ط المكتبة القيمة، القاهرة 1977، ص179. ولكن في قوله إن الوصية للآباء بالأبناء سابقة على وصية الأبناء بالآباء نظر. اللهم إلا إن كان يقصد السبق المعنوي باعتبار حاجة الطفل إلى العناية به في صغره، بل منذ ولادته. أما سياق الآيات من سورة الإسراء فيبدأ بالوصية بالآباء لا بالأبناء: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23 ـ 24]، ثم يستمر السياق إلى أن يصل إلى الوصية بعدم القتل خشية الإملاق.

عز وجل، بالتدرج من المحسوس إلى المعقول، ومن الجزئي إلى الكلي، ومما يدرك كله إلى ما يدرك بعضه، أو يعرف أثره، دون أن يدرك بالعقل كله أو بعضه.

تلك هي طريقة القرآن الكريم نفسه، ففي سورة النحل يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[1] (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل: 10 - 18].

وثمرة هذا الإيمان لا يتسع لتفصيلها مقام؛ لأنها تورق حتى تظلل حياة الإنسان كلها، ولكن إجمالها يمكن أن يكون في قولنا: ثمرة الإيمان مراقبة الله في الصغائر والكبائر.

(١) أي ترعون ماشيتكم، أو تأكلون منه، أصله من سامت الإبل إذا رَعَتْ.

والذي يراقب الله يعبده حق العبادة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

وفي حديث عبد الله بن عباس أنه كان خلف رسول الله ﷺ على دابة يركبها، فقال له: «**يا غلام ألا أعلمك كلمات؟**» قال: بلى يا رسول الله، قال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك** (وفي رواية: أمامك)، **وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

فكيف يكون سلوك مَن هذه ثمرة إيمانه؟ وهل يكون مجتمع أسعد وأطهر وأسلم من مجتمعٍ، مثلُ هذا المؤمن بتلك الحقائق الخالدة، هم أفراده؟

وأما الذين يُرَبَّون على الإلحاد، ويُنَشَّأون على إنكار الرب أو الجهل به، والاستهزاء بالإيمان وأهله، فقد أبلغ القرآن وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: 12].

* * * * *

(1) رواه الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس بسند صحيح، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (7957) ج2 ص 1317، ط المكتب الإسلامي الثانية، 1986م.

والقيمة الثانية هي التقوى: فإذا كانت مراقبة الله عز وجل هي الثمرة الإجمالية للتربية الإيمانية، فإن التقوى هي الأثر المحسوس للإيمان. ومن عجيب فهم العلماء لها أنهم عرفوها بأنها: «**ألا يراك الله حيث نهاك، وألا يفقدك حيث أمرك**». ولذلك لا يكاد الناظر في القرآن الكريم يمر على صفحة من صفحات المصحف إلا وجد التقوى منسابة فيها: فهي علة الأفعال وعلة الأقوال وعلة الامتثال، وهي مجلبة محبة الله تعالى ورضاه، فأنى لمؤمن أن يغفل عنها أو يهمل استعمالها في سلوكه كله؟

والتقوى حساسية في الضمير وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم وتَوقٍّ لأشواك الطريق؛ طريق النجاة الذي تتجاذبه أشواك الرغبات والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك أن يلبي رجاءً، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا.

وفي تاريخ أخيار أمتنا، ورموز القيم الإيمانية فيها، آلاف الحقائق الدالة على فهمهم الصادق لهذه المعاني، وفي ثلاث قصص، موجزة، أكثر من الكفاية في مثل هذا المقام.

- فقد حدَّث التابعي الجليل عبد الله بن دينار أنه كان مع عمر بن الخطاب في بعض الأرض فمر بهم راع يرعى غنمًا، فقال له عمر: بعنا شاة نتقوت بها. فقال الراعي: إني مملوك، يعني أن الغنم ليست له وإنما هي لسيده. فقال عمر للراعي، مختبرًا له: قل لسيدك أكلها الذئب. فقال الراعي: فأين الله؟

قال عبد الله بن دينار: فاستخبره عمر عن سيده، واشتراه وأعتقه، وقال له: «**أعتقتك كلمتك في الدنيا وأرجو أن تعتقك في الآخرة!**»[1].

■ وزوج عمر ابنه عاصمًا من فتاة سمعها تجادل أمها التي تحضها على خلط اللبن بالماء بعد نهي أمير المؤمنين عنه.

الأم تقول: «**لا يراك عمر...**» (وكان عمر يتعسس - أي يتجول بالليل - ليراقب أحوال رعيته، فسمع الحديث).

والفتاة تقول: «**ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء**»[2].

فكان من ثمرات هذا الزواج عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين: جدته هي تلك الفتاة الصالحة. ولا شك أن عرقًا منها ومن عمر بن الخطاب - معًا - قد نزع عمر بن عبدالعزيز فكان الخليفة الذي كان.

■ وكان يونس بن عبيد (ت 139 هـ) تاجرًا، وعالمًا زاهدًا. ذهب إلى الصلاة وترك قريبًا له في دكانه، فجاء أعرابي فباعه هذا القريب حلة بأربعمائة دينار. فلما عاد يونس من صلاته وأخبره قريبه بكم باعها غضب، وقال له إنها لا تساوي إلا مائتين، وأسرع يبحث عن المشتري في السوق حتى لحق به ورد إليه مائتي دينار - وهي ما هي يومئذ - فكان المشتري يقول له: «**قد رضيت، وهي عندنا في البادية تساوي ستمائة**». وكان يونس يقول له: «**لكن النصح في الدين خير من الدنيا وما فيها**»[3]!!

(1) ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، جـ4 ص340.
(2) ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ص84.
(3) المناوي، طبقات الصوفية، جـ4، ص638؛ وأبو نعيم في الحلية، جـ3 ص15 ولفظهما مختلف عما في المتن.

كم نحن بحاجة إلى هذه الوقائع وأمثالها لنربي صغارنا عليها، بل لنعيد بها تربية الكبار أيضًا.

* * * * *

والقيمة الثالثة هي الأُخُوَّةُ: فالناس جميعًا ـ مهما تباينت دياناتهم وأعراقهم ـ إخوة في الإنسانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

وهو معنى لَا يجوز أن يغيب عن بال الفرد أبدًا، وهو معنى يعصم من الظلم والحيف والجور، ويحمل على البر والود والصدق. وأثر كل من أولئك لا يُنْكَرُ فعله في الأفراد وفعله في الأمم والجماعات على سواء.

ولعله لذلك رُوي أن النبي ﷺ كان يقول دُبُرَ كل صلاة: **«اللهم ربنا وربَّ كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك. اللهم ربنا وربَّ كل شيء، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك. اللهم ربنا وربَّ كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»**[1].

(1) رواه الإمام أحمد في المسند عن زيد بن أرقم، وهو في طبعة «بيت الأفكار الدولية» برقم (19508) وفي طبعة المكتب الإسلامي برقم (19241)، ورواه أبو داود في سننه عنه، وهو فيها برقم (1508) من طبعة دار ابن حزم 1998، وبرقم (1505) من طبعة دار الكتب العلمية مع شرحه عون المعبود، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ـ عن زيد بن أرقم أيضًا ـ برقم (5122)، جـ ٥، ص210، ط 2 بتحقيق حمدي السلفي، ط وزارة الأوقاف العراقية 1984. وفي سنده عند الجميع داود الطُّفاوي عن أبي مسلم البجلي. وداود ضعفه يحيى بن معين والدارقطني، ووثقه ابن حبّان. فالسند ضعيف ومع ذلك =

والمؤمنون إخوة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10]. وفي حديث رسول الله ﷺ، الذي رواه مسلم عن أبي هريرة: «**لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُه**»[1].

وما يرد على تحريم دم المسلم وماله وعرضه يرد كذلك ـ بالقدر نفسه ـ على تحريم ذلك كله من غير المسلم؛ فإن الإنسانية هي مناط العصمة والتحريم وليس الدين، بل إن تحريم دم غير المسلم وعرضه وماله آكد في شريعة الإسلام منها في غيرها من الشرائع بالنسبة لمخالفي أهلها؛ لأن غير المسلمين ـ في شريعة الإسلام ـ لهم ذمة الله ورسوله؛ أي عهدهما وحمايتهما؛ وهو وضع قانوني ليس له نظير في غير شرعة الإسلام.

فكيف نربي أبناءنا ـ مع هذه التأكيدات القرآنية والنبوية ـ متناسين معنى الأخوة الإنسانية ومعنى الأخوة الإسلامية؟ وكيف نستمر

= فالكلام المنسوب إلى رسول الله ﷺ كلام صحيح كله، وموضع الشاهد فيه ليس إلا ترديدًا لمعنى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾ [الحجرات: 13]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ...﴾ [النساء: ١].

(1) صحيح مسلم، ج8 ص31، من طبعة دار الوفاء مع شرح القاضي عياض، بتحقيق الدكتور يحيى إسماعيل رقم (2564).

على هذا التناسي بعدما رأينا آثاره المدمرة في الأفراد والجماعات على السواء؟!

أليس ذلك التناسي هو الذي أدى بنا إلى سيادة شح النفوس الذي به يقتل الأب ولده، والزوجة زوجها، والابن والديه؟

أو ليس ذلك التناسي هو الذي أدى بنا إلى تفشي الظلم في علاقاتنا الداخلية والخارجية حتى سفكت الدماء واستحلت الأموال والأوطان والأعراض؟

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه عنه من حديث جابر بن عبد الله: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»[1].

* * * * *

والقيمة الرابعة هي الرحمة: والرحمة رقة في القلب، وإرهاف في الشعور، وهي تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، وكفكفة دموعهم وتخفيف أحزانهم.

والرحمة خلق إسلامي - بل ديني - أصيل. يقول الرسول ﷺ: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»[2].

(1) صحيح مسلم، ج8 ص 48، من الطبعة السالف ذكرها رقم (2578).

(2) رواه الإمام أحمد برقم (9946)، والترمذي برقم (1932)، وأبو داود برقم (4943)، وابن حبان برقم (466)، والحاكم في المستدرك برقم (7795)، ط دار الفكر بيروت 2001. كلهم رووه عن أبي هريرة. هو في صحيح الجامع الصغير برقم (7467) ج2 ص 1243.

ويقول: «**الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[1].

ويقول مخاطبًا أصحابه: «**لن تؤمنوا حتى ترحموا** (وفي رواية تراحموا). **قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله. قال إنها ليست برحمة أحدكم صاحبه. ولكنها رحمة العامة**»[2].

والرحمة إن كانت في هذه الأحاديث النبوية، وفيما يظاهر معناها ومبناها من الآيات القرآنية الكريمة، رحمة إنسانية، فإنها في أحاديث وآيات أخر تتسع لتشمل رحمة الحيوان الأعجم، فتجزي عليها بأعظم الجزاء، وتعاقب على تركها وإهمالها بأشد العقاب.

وقصتان من السنة الصحيحة تصوران ذلك أحسن تصوير وأتمه:

■ **فالقصة الأولى**: أن بغيًّا من بني إسرائيل كانت مسافرة، فوجدت في فلاة (صحراء) كلبًا يكاد يموت عطشًا، فنزلت إلى بئر ماء وملأت نعلها ببعض الماء وسقت الكلب **فاطَّلعَ اللهُ عليها فغفرَ لها**[3].

---

(1) هو في صحيح الجامع الصغير برقم (3522) ج1 ص 661.

(2) السيوطي، الجامع الكبير، وقد نسبه إلى الطبراني، والحاكم في المستدرك وهو فيه برقم (7468) كلاهما عن أبي موسى الأشعري. وقد خرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (13671) وقال رجاله رجال الصحيح، وذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري في أول شرحه لباب (رحمة الناس والبهائم) فقال: «أخرجه الطبراني ورجاله ثقات». وقال الحاكم في المستدرك: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(3) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري (3321) و(3467)، ومسلم (2245) ولفظهما: «فغُفِرَ لها بذلك».

■ **والقصة الثانية**: يحكيها قول رسول الله ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خِشَاش الأرض**»[1].

وقد تعلم الصحابة من ذلك أجمل تعليم، حتى رأى عمر رجلاً يجر شاة إلى الذبح بقسوة، فقال له: «**قدها إلى الموت قودًا جميلاً**»[2].

وكان من آثار هذه الرحمة العامة في الأمة الإسلامية ما نراه في أنواع الأوقاف، فكان في أوقافنا:

■ وقف الكلاب الضالة: لإطعامها ورعايتها.

■ ووقف الأعراس: لتستعير العروس الفقيرة من حليه وملابسه ما تصلح به شأن نفسها ليلة عرسها ثم ترده إلى خزانة الوقف لينتفع به سواها.

■ ووقف مؤنس المرضى والغرباء: ينفق منه على منشدين ذوي صوت رخيم ينشدون في المستشفيات في الليالي المتميزة بطولها ـ حيث يضيق بعض المرضى حتى بأنفسهم ـ شعرًا ونثرًا وقصصًا مسلية مؤنسة حتى لا توحش المرضى وحدتهم وآلامهم.

■ وأخيرًا كان عندنا وقف الزبادي: الذي كان ينفق منه على توفير آنية يقدمها العاملون لمخدوميهم بدلاً من الآنية التي تكسر في أثناء الاستعمال[3].

(1) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، البخاري (3318)، ومسلم (2242)، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (3374) ج1، ص 636. ولفظه مختلف عما في المتن.

(2) رواه عبد الرزاق في المصنف عن ابن سيرين رقم (8605)؛ وانظر الرواية رقم (8609)، المصنف بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ط المجلس العلمي بالهند 1972.

(3) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ط المكتب الإسلامي، 1982 ص 117 وما يليها.

فهل تجد في مجتمعٍ هذه هي آثار الرحمة بين أبنائه حقدًا أو حسدًا أو غلاً أو طمعًا فيما عند الغير؟ أو ليس ذلك كله هو سبيل الاطمئنان الفردي والأسري، والسلام الاجتماعي، والاستقرار السياسي والاقتصادي؟

وهل يدرك الناس من ذلك أي خير أضاعه الذين أمَّموا الأوقاف وصادروا أموالها وضموها إلى ميزانية الدولة؟ وأي شح أورثوه الناس بصدِّهم إياهم عن عمل الخيرات والمسارعة في المبرات؟

* * * * *

والقيمة الخامسة هي الإيثار: والإيثار هو تفضيل الغير على النفس، وهو خلق نبيل يقصد به وجه الله تعالى، ويدل على صدق الإيمان، وصفاء السريرة، وطهارة النفس. وهو سبيل أكيد إلى تحقيق التكافل الاجتماعي، والتعاون بين الذين يجدون أضعاف ما ينفقون ويحتاجون، والذين لا يجدون ما يأكلون أو يلبسون!

وفي القرآن الكريم وَصْفُ الأنصار والمهاجرين بأنهم: ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

وصور الإيثار لا تقتصر على الإيثار في الماديات وإنما تتسع لتشمل الإيثار في المعنويات كذلك.

وقصص الإيثار القرآنية والنبوية لا يحدها حصر، ولكن واحدة منها ينبغي أن نذكرها، ونذكِّر بها: تلك هي قصة شهداء اليرموك.

وقد كان من خبرهم أن رجلاً من المسلمين وجد ابن عمه في الجرحى، فقال: **ما أحوجه وهو في الرمق الأخير إلى شربة ماء(!) فجاء يسقيه، فأشار الجريح المحتضر إلى زميل له جريح، وأشار الثاني إلى ثالث؛ كل منهم آثر أخاه بالماء ـ أحوج ما يكون هو إليه ـ فلما رجع الساقي إلى أولهم وجده قد لقي ربه، واستشهدوا جميعًا عطاشًا، إيثارًا من كل منهم لأخيه!!**[1].

إننا لا نطمع اليوم في مثل ذلك ـ قطعًا ـ ولا ندعو إلى أن يحرم الناس أنفسهم حتى يبلغوا الموت جوعًا أو عطشًا لإعطاء الآخرين، ولكن هذا المثل ـ وإن خالف صنيع أصحابه طبيعة البشر ـ يظل صالحًا للتوجيه والتذكير وغرس معنى الإيثار، بما هو من أعظم الفضائل في نفوس الناشئة من البنين والبنات، حتى لا يجرفهم تيار الأثرة السائد، وخلق الأنانية المستشري بما يصنعان في العلاقات الاجتماعية والأسرية والدولية من دمار وتخريب[2].

* * * * *

والقيمة السادسة هي العفو: والعفو ترك الحق مع القدرة على اقتضائه مباشرة أو بواسطة السلطة المختصة.

(1) صور من حياة الصحابة، عبد الرحمن رأفت الباشا، دار النفائس، بيروت، ط1992.

(2) كان صديقنا الجليل الأستاذ الدكتور أحمد القاضي ـ شفاه الله ـ يقول لنا: إن هذا الموقف من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يخالف التوجيه النبوي: «ابدأ بنفسك...» ويخالف التوجيه القرآني: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. ومع ذلك فقد كان كل منهم يتقرب إلى الله بإيثار أخيه على نفسه. فتأمل!

أما مع العجز عن اقتضاء الحق فلا عفو وإنما هو التسليم بالقدر، واحتساب الحق عند الله تعالى. والقرآن الكريم يأمر بالعفو أمرًا عامًّا: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: 237].

ويمدح العافين مع القدرة: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

ويرغِّب في كسب الأعداء بالتجاوز عن سيئاتهم وتحويلهم ـ بذلك ـ إلى صفوف الأصدقاء: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

وفي التاريخ الإسلامي مئات، بل آلاف، من القصص التي تحبب العفو إلى القلب وتدل على حسن أثره في الناس. ولكننا نكتفي بقصة واحدة منه تقرِّب المعنى وتجسِّده: «حدَّث عبد الله بن طاهر ـ وزير الخليفة العباسي المأمون ـ قال: **كنت عند المأمون يومًا فنادى: يا غلام، فلم يجبه أحد. فكرر النداء فلم يجبه أحد. فنادى الثالثة، فدخل غلام تركي ثائر فقال له: أما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام... إلى كم يا غلام؟**

قال عبد الله بن طاهر: **فما شككت أن المأمون قاتله. لكنه سكت مليًّا ثم قال لي: إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه! وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا!!**»[1].

(1) هذه الرواية مشهورة عن عبد الله بن طاهر، وذكرها عبد الله ناصح علوان، في تربية الأولاد في الإسلام، ط3، 1981، حلب، جـ1 ص371.

فهل يرى الآباء والأمهات، وهل يرى المربون المأمونون على أبنائنا وبناتنا كيف تفعل التربية على هذه الفضيلة الدينية في حياتنا الخاصة والعامة؟

وهل يدركون كم من الخير حُرِمَتْهُ هذه الأمة بتربية الأبناء والبنات على أخلاق الطغاة والفراعين بدلاً من تربيتهم وتربيتهن على أخلاق الصديقين والصالحين؟!

* * * * *

والقيمة السابعة هي الجرأة في الحق: والجرأة قوة نفسية ضرورية يستمدها الإنسان من إيمانه بالله الواحد القهار، ومن الحق الذي يعتنقه، ومن القدر الذي يسلِّم به ويستسلِمُ له، ومن المسؤولية التي يستشعرها. وعلى قدر نصيبه من ذلك كله تكون جرأته في الحق، وقدرته على الجهر بالرأي الحر.

وقد كان الصحابة الذين تربوا على يد النبي ﷺ أجرأ الناس في الحق، بل كان ذلك جزءًا من البيعة النبوية، فقد روى مسلم في صحيحه أن عبادة بن الصامت قال: «**بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم**»[1]. وفي الحديث: «**سيد الشهداء حمزة. ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله**» [2].

(1) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت، البخاري برقم (7199، 7200)، وفي مسلم (1709).

(2) رواه الحاكم في مستدركه بسند صحيح عن جابر بن عبدالله وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (3675) ج1 ص 685.

وقد كان أبو بكر أجرأ الناس في الحق حتى قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «**لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح إيمان أبي بكر**»[1].

ويكفي لتأكيد ذلك أن نتذكر مواقفه في يوم موت النبي ﷺ، وفي بيعته بالخلافة، وفي إنفاذ جيش أسامة لحرب الروم، وفي جمع القرآن الكريم، وفي حروب المرتدين، وهي مواقف ينطق كل منها بشجاعة هائلة وقدرة على قول الحق، والقيام بمتطلباته، غير متكررة.

وهذا الخلق، الجرأة في الحق، هو الذي يصنع رجالاً ونساءً أحرارًا، ويقود إلى تكوين مجتمع حر يحصل كل فرد فيه على حقه، بعد أن يؤدي الذي عليه، ويتعاون الجميع فيه على احترام القانون والخضوع له، فتختفي عوامل التنافس الاجتماعي البغيض وتحل محلها معاني الأخوة والرحمة والإيثار والتكافل والتعاون على البر.

* * * * *

إن الزمن الذي يستغرقه إعادة هذه القيم إلى نفوس أبنائنا وبناتنا، أو الذي يُنْفق في التخطيط والتنفيذ لتنشئة أجيالنا الجديدة على القيم الروحية الصالحة ـ والصانعة ـ لن يكون زمنًا ضائعًا، بل هو زمن مكتسب.

والعمل فيه قريب الثمرة مهما بدا أول الطريق بعيدًا أو محالاً.

(1) رواه عن عمر بسند صحيح البيهقي في شعب الإيمان وغيره، وروي مرفوعًا عن عبدالله بن عمر وفي سنده راو ضعيف، لكن له شواهد كما قال السخاوي في المقاصد الحسنة رقم (908)؛ والعجلوني في كشف الخفا رقم (3120).

والحديث عن المبادئ يؤدي بالضرورة إلى مواجهتنا لحالنا الحاضرة التي تجأر فيها قيمنا ومبادئنا بالشكوى من إهمالها وتضييعها، والتي تتمادى فيها الدعوى بأن هذه المبادئ تنتمي إلى زمن مضى لا يتصور رجوعه، وإلى أقوام قضوا ولن يبعثوا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!!

وفي هذه المواجهة ينبغي أن يعمل المؤمنون الصادقون، من الآباء والأمهات والمربين، ليبقى أساس ما يؤمنون به قائمًا.

ولابد ـ مع الاستمساك بالحق والدفاع عنه ـ أن تتسع الدائرة يومًا بعد يوم إلى أن يسود سلطان المبادئ، فيبدو بها الفرق بين دنيانا ودنيا غيرنا؛ وبين حضارتنا ـ التي شمسها إلى شروق يقينًا ـ وبين الحضارات الغالبة اليوم، والغاربة غدًا لا محالة.

ونحن نؤمن بأن تحقيق آمالنا في الوسائل والأهداف معًا ليس أمرًا سهلاً، ولكن الحزم في الأخذ به، وتعهد النفس ـ ونفوس الكبار أولاً ـ بتعويدها إياه وإقناعها بجدواه، تمهيدًا للنجاح في نقله إلى الصغار الذين نتعامل معهم، هذا وحده هو الكفيل بأن يغير ما بنا من سوء إلى حسن؛

ومن تخلف إلى تقدم؛

ومن شر إلى خير؛

ومن ضعف إلى قوة.

لأن قانون التغيير الأزلي هو:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

والحمد لله رب العالمين.

أحـــدث إصـــدارات

الدكتور

محمـد سليـم العـوّا

- الإعلان الإسلامي في حقوق الإنسان. (سلسلة في التنوير الإسلامي)
- السنة التشريعية وغير التشريعية. (سلسلة في التنوير الإسلامي)
- بين الآباء والأبناء.. تجارب واقعية.
- في أصول النظام الجنائي الإسلامي.
- للدين والوطن.. فصول في علاقة المسلمين بغير المسلمين.

هذا الكتاب حصيلة عمر!

اهتم الكاتب بالمسألة التربوية منذ مطلع شبابه، فراقب الآباء الذين نجحوا فى تنشئة أبنائهم، والذين أخفقوا، ولاحظ الفوارق بين الأبناء الذين أحسنوا التلقى والأبناء الذين أبوا أن يسمعوا ما قيل لهم أو يفقهوه!

ورُزق بنات وبنين حاول أن يصنع معهم أحسن الذى رآه وتعلَّمه واستخلصه، وأعانه على ذلك صلاح أمهم - رحمها الله - وصبرها وذكاؤها وحكمتها.

وشارك كثيرين من أصدقائه العناية بأبنائهم وبناتهم... وتعلَّم على مرّ السنين وطول الممارسة أن الزاد المستفاد من التجربة التربوية العملية أبقى أثرًا وأعظم نفعًا من كل درس نظرى أو تأمل فلسفى.

لذلك كتب هذه الفصول ليقرأها الآباء والأبناء جميعًا، فهى حديث عنهم إليهم.

الناشر

6 221133 322775

دار نهضة مصر للنشر

www.nahdetmisr.com